حقيقة الزهد والغزل

عند

أبي العتاهية

الدكتورة

فاطمة البيومي محمود سلامة

مدرس الأدب والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالمنصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

والصلاة والسلام على مُعلم الناس الخير رسول خير أُمة أُخرجت للناس محمد صلي الله عليه وسلم .

وبعد :

أنجب العصر العباسي الأول مجموعة فريدة من الشعراء المجودين كان لكل منهم طريقته وأسلوبه الذي عُرف به ، وشاعرنا أبو العتاهية وليد هذا العصر ، عصر النضج الفكري والترف الحضاري ، ولأن هذا الشاعر تقلب بين اللهو والزهد ، بين القُرب من الخلفاء والنأي عنهم ، بين نعيم القصر وذل الحبس ، حامتْ حوله الكثير من الشكوك ، شك في عقيدته وشك في زهده ، وشك في حبه ، وشك في بعده عن الخلفاء ، وارتبت أنا أيضا في أمر هذا الشاعر ، ووجدت نفسي اتجه إلى شعره بالقراءة المتأنية ، وإلى سيرته بالتتبع والاستقصاء ، وخرجت من ذلك كله برغبة ملحة لدراسة جانبي الزهد والغزل – خاصة – باعتبار أن هذين الغرضين كانا موضع اتهام الكثيرين من معاصريه ، ومن غير معاصريه له بالملق والكذب فيهما .

وكان لزاماً عليَّ أن أعرض بعض الأقوال في عقيدة الرجل وزهده وأدرسها وأستخلص منها ما هداني إليه البحث والنظر .

ثم اتجهت بعد ذلك لدراسة غرض الزهد عنده ، ووقفت معه وقفة متأنية ، ملتُ فيها إلي التتبع والاستقصاء والإكثار من ذكر النماذج التي تؤكد صدق زهد هذا الشاعر والتي تدحض حُجج المنكرين والمتحاملين عليه . وتناولت المعاني التي وردت في زهده من ابتهالات وأدعية وحمد واستغفار وتسبيح ، ومن الإشارة إلي عدم ذكر نبي الإسلام محمد صلي الله عليه وسلم وجملة " لا شريك له " ، وبينت السبب في ذلك .

وتناولت حديثه مع النفس سواء الأمارة أو اللوامة أو المطمئنة وشكواه ، والعظة والنصيحة ، والموت وما بعده من بعث وحشرٍ وجنة ونار ، والدنيا وتقلب أحوالها ، والحكم والأمثال ، والغزل وما يحويه من معانٍ طريفة .

وتناولت – بعد ذلك – دراسة شعره الزهدي دراسة فنية من ألفاظ وأساليب ، ومعانٍ وأفكار ، وصورٍ وأخيلة ، وموسيقي وأوزان .

عقبت البحث بخاتمة احتوت على الرأي في زهده ، وإني بعد ذلك أترك المجال للقارئ ليقف على دقائقه وأسراره وليحكم على الشاعر بعين الناقد المنصف .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وهو حسبي ونعم الوكيل .

شهر المحرم ١٤٢٨ هـ

عصر أبي العتاهية

سبق قيام الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية عدة أحداث كانت بمثابة إرهاصات لنهاية حكم بني أمية . أهمها :

١- اضطهاد بني أمية لآل بيت الرسول صلي الله عليه وسلم ومعاملتهم بالقسوة والعنف ، واتباعهم في ذلك سُبلاً كثيرة من الحبس والتشريد ، مما أثار الضغينة في نفوس جموع من المسلمين ، وألهبت نفوس الشعراء حمية لآل بيت رسول الله صلي الله عليه وسلم .

يقول دعبل الخزاعي مصوراً حالهم [١] :

ملامك في آل النبي فإنهم	أحبائي ما عاشوا وأهل تقتي
لهم كل حين نومة بمضاجع	لهم في نواحي الأرض مختلفات
أرى فيأهم في غيرهم متقسما	وأيديهم من فيئهم صفرات

وأثيرت الحمية ، وألهبت مشاعر العلويين والمسلمين بعامة بعد مقتل الحسين في كربلاء .

وقد أدت سياسة العنف التي اتبعها الأمويون إلى تكوين جماعات لصد عنفهم ضد آل البيت ، ومحاربتهم في العراق وفارس ، فدعا الشيعة للحسن ثم لأخيه الحسين ثم لمحمد بن الحنيفية .

٢- اضطهاد الأمويين للموالي ، واحتقارهم لهم وتعصبهم لكل ماهو عربي ، فقد أمر الحجاج ألا يؤم بالكوفة إلا عربي ، وكانوا يمنعون زواج المسلم من الموالي بالعربية ، وإذا فعل كانوا يطلقونها منه ويجلدونه نكالاً به [٢] .

٣- عمل الأمويون على إثارة العصبيات القبلية المقيتة وإحيائها من جديد بعد أن

---

(١) معجم الأدباء – ياقوت الحموي – دار الفكر بيروت – ط الثالثة – ١٩٨٠ م – ج ١١ ص ١٠٦ .

(٢) أنظر تاريخ الأدب العربي – د/ السباعي بيومي .

أخمدها الإسلام بتعاليمه السمحة وبعث روح الإخاء والتآلف والود بين المسلمين جميعا ، فقاموا بتحريش القبائل وإثارة ضغينتهم ضد بعضهم البعض ، ظناً منهم أن هذه السياسة ، ستشغل القبائل عن التفكير في مناهضتهم ، لكن ردَّ الله كيدهم في نحورهم وحدث ما لم يتوقعوا ، فعندما قاد أبو مسلم الخراساني جيوش العباسيين حاملاً دعوتهم وجد القبائل متنازعة ، والخصومات على أشدها ، فلم يجد صعوبة في التغلب عليهم .

وفي الجهة الأخرى نرى العباسيين يستغلون سُخط الموالي وعديد من المسلمين على بني أمية ، فيدعون لدولتهم سراً يؤازرهم الخرسانيون .

وفي ربيع الأول من عام ١٣٢ يعلن أبو العباس السفاح قيام دولة بني العباس .

* * *

الحياة السياسية

في بداية الدولة العباسية ، وفي عصر الخليفة أبي جعفر المنصور وابنه المهدي ثم الرشيد ، كانت الدولة العباسية قوية تحكم قبضتها على سائر الولايات التابعة لها ، وكان للخليفة العباسي – في تلك الفترة – الكلمة والرأي والسلطان ، فيعزل من يشاء ، ويولي من يشاء ، ويبطش بمن شاء في أي وقت أراد .

وقد استخدم العباسيون منذ بداية دعوتهم الحيلة والدهاء في البطش بمناوئيهم ومعانديهم ، مستعينين على ذلك بقوتهم العسكرية وأسطولهم القوي .

فلما أحس الرشيد بازدياد نفوذ الفرس وتدخلهم الفعلي في شؤون الدولة ، مستغلين مناصبهم الحساسة فيها ، منها منصب الوزارة الذي كان مقصوراً عليهم وخشي استفحال أمرهم ، احتال عليهم وبطش بهم ونكبهم في سنة ١٨٧ هـ .

وقد أحسن الجاحظ حين صور دولتي بني أمية وبني العباس بقوله:"إذا كانت دولة بني أمية عربية أعرابية فإن دولة بني العباس أعجمية خراسانية" .(١)

ومن الغبن أن نغفل دور الفرس البارز في نقل العديد من حضارة بلادهم خاصة فيما يتعلق بشؤون الحكم والسياسة ونظام الدواوين ، ونظام الحرب والأساطيل وغير ذلك الكثير .

وقبل خلافة المتوكل نجد حكم بني العباس يبدأ في الضعف ورأيهم في التزعزع ، وليس أدل على ذلك من تآمر الأتراك على مقتل المتوكل ، وقد ازداد نفوذ الأتراك منذ عهد المعتصم الذي استجلب عدداً كثيرا منهم حتى ضاقت عليهم بغداد بشوارعها ، وآذوا العامة بخيولهم ، ولم يكونوا أهل حضارة ، اضطر المعتصم أن يبني لهم مدينة سرمن رأي أو " سامراء " . وكان المعتصم يميل إليهم لأن أمه كانت تركية ، فكانوا وبالاً علي العرب والإسلام .

فالأتراك هم الذين عملوا على تولية المتوكل الخلافة وهم أيضا الذين تآمروا

---

(١) البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون– دار الجيل بيروت–١٩٩٠ج ٣ ص ٢٠٦ .

على قتله ، وبتدخلهم المقيت في شؤون الدولة تسرب الضعف إليها ، وخاصة في عهد المنتصر والمستعين والمعتز ، ونتيجة لهذا الضعف انشقت الدولة على نفسها ، فبعد أن كانت تحت إمرة خليفة عباسي واحد ، أصبحت دويلات مستقلة فكانت هناك الدولة الحمدانية ، والدولة العباسية ، والدولة الخراسانية وغيرها من الدويلات .

وأبو العتاهية عاش أخصب فترات الدولة العباسية ، وشاهد قمة مجدها وعنفوان صباها ، وبهاء خلافتها ، وقوة سلطانها ، فشاهد نفوذ خلفاء بني العباس وشدة بأسهم ، وعاصر النهضة العمرانية كما شاهد البذخ العباسي .

عاصر كلا من المهدي والهادي والرشيد والأمين ، يهنئهم ويعزيهم وينال من بدرهم وجوائزهم .

الحياة الاجتماعية

لا نعدو الواقع إذا قلنا إن المجتمع العباسي كان مجتمعاً طبقياً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ .

فهناك طبقة الأغنياء والسراة ، وهم الخلفاء والوزراء والولاة وقد استأثر هؤلاء بقطاع عريض من الأرض وكثير من الإقطاعات ، وكان هؤلاء معنيين – بالدرجة الأولى – بمصالحهم ورعاية شؤونهم الخاصة ، وهناك في المقابل الطبقة الفقيرة ويمثلها عامة الشعب وسواده الأعظم ، ممن لا يجدون غني يغنيهم ولا يأبه الناس بهم ، وأوصدت أبواب الخلفاء والوزراء أمام الفقراء والمعوزين نظراً لاتخاذهم الحُجَّاب ، فلم تسمع لهم شكوى ولم ترفع لهم راية ، فأهملت مصالحهم ، وتركوا يتخبطون في الأرض على غير هدى .

وهناك الطبقة الوسطي ، وهي طبقة التجار وأصحاب الصناعات والحرف الرفيعة ممن يجدون لتجارتهم وصناعتهم سوقاً رائجة في بلاط الخلفاء والوزراء .

وبهذه الطبقة المقيتة والهوة السحيقة بين الطبقات ساد الغلاء وفشا الفقر في المجتمع ، وعاش الخلفاء في قصورهم التي بنوها على شاكلة قصور وأوايين المدائن الفارسية ، فشغلهم سلطان الترف والحضارة عن النظر في شؤون الرعية والإصغاء لمطالبهم ، والنظر في حاجاتهم مما حدا بأبي العتاهية أن يتوجه إلى الخليفة بنصيحة استهلها بقوله :

من مبلغ عني الإمام نصائحا متوالية[1]

ولما لم يصغ لنصحه ويستجب لعظاته دعا إلى الزهد وعدم الجري وراء مطالب النفس وشهواتها .

وقد ضم المجتمع العباسي أجناساً شتي وعناصر متباينة ، فقد عاش فيه

---

(١) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ/ كرم البستاني – بيروت – لبنان – ص ٤٨٧ .

العربي والفارسي والتركي والرومي والزنجي ، وغلب على العنصر العربي الاعتزاز بالنفس والأنفة والشجاعة ، وغلب على العنصر الفارسي الميل إلى الترف والتحضر ودعا إليه ، استطاع بحكمته وسياسته أن يغير الكثير من أنماط الحياة العباسية في المأكل والمشرب والملبس ، ولم يكن العنصر التركي على قدر من الحضارة فينتفع بهم ، ورغم ذلك علا شأنهم في الدولة خاصة في عصرها الثاني في خلافة المعتصم ، و أصبحوا قوة لا يستهان بها ، وقد وجدوا بكثرة في بيوت الخلفاء والأمراء .

أما العنصر الزنجي فقد استجلب من سواحل افريقية الشرقية للعمل في زراعة الأرض وحراثتها .

يقول د/ محمد عبد المنعم خفاجي : " إن تنوع الحياة الاجتماعية إلى خاصة وعامة وترف وفقر ، ونسك ولهو جعل البلاد معرضاً للنحل ومجالاً للدعايات السرِّية ، وأصحاب المذاهب الذين مزجوا الأغراض الاجتماعية بالمبادئ الدينية ومن ثم قامت ضجة كبري بين معظم الفرق الاجتماعية والدينية من نصارى ويهود وصائبة وزرادشتيين ومانويين وزنادقة ودهريين "[١] .

---

(١) أبو عثمان الجاحظ د. محمد عبد المنعم خفاجي – دار الطباعة المحمدية – القاهرة ص ٢٨ .

الحياة الفكرية

لا نبالغ إذا قلنا إن عصر دولة بني العباس خاصة في أول عهدها هو العصر الذهبي للحضارة الفكرية ، والتقدم العلمي في مختلف فنون المعرفة .

ولا غرو فقد حرص خلفاء بني العباس على بناء نهضة علمية وفكرية أساسها النقل والترجمة للفنون بعامة ، وللفلك والطب والصيدلة والسياسة بخاصة .

نقلوا فنون فارس والهند ، فقد كان الفرس أبناء حضارة وسياسة وبناء ، وقد شجع خلفاء بني العباس خاصة المهدي والرشيد والمأمون حركة الترجمة والنقل ، وأغدقوا على العلماء والمترجمين الهدايا والهبات ، وأجروا لهم رواتب سنية ، وشجعوا الرحلة إلى البلاد لنقل التراث الفكري إلى حاضرة الدولة العباسية .

ولا نعجب من اهتمام العباسيين بذلك فقد كانوا عربا بالمربي جبلوا على العربية واعتزوا بمعارفهم اعتزازاً كبيراً فجالسوا العلماء وشاركوا في الحركة النقدية ، وطارحوا الشعراء وأجازوهم وحاوروهم و استقرضوهم ، وشجعوهم على مديحهم والإشادة بمكارمهم ومآثرهم فأجزلوا لهم العطاء وأقطعوهم القطعان .

وقد عني المنصور بنقل وترجمة كتب الطب والفلك والنجوم والفلسفة ، وأنشأ الرشيد دار الحكمة ، ونقل إليها ما وجد من كتب في أنقرة وعمورية وبلاد الروم .

وكذلك المأمون أرسل المترجمين إلى ملك الروم لنسخ علوم اليونان بالخط العربي ، وعين سهل بن هارون مشرفاً على بيت الحكمة .

ومن المهمّ أن نذكر سيادة مذهب الاعتزال في عصر المأمون لأنه كان يؤيده ، ثم جاء عصر المتوكل فحارب الأتراك هذا المذهب إلى أن قضوا عليه ، وبذلك انتهى سلطان المعتزلة وبطل القول بخلق القرآن الذي طالما نادى المعتزلة به .

ولا يخفى علينا أنّ أبا العتاهية قد تأثر بهذه الأمشاج وهذا التزاوج الثقافي خاصة بعد انتقال الخلافة إلى العراق .

أبو العتاهية حياته ونشأته

أبو العتاهية ، لقب غلب على إسماعيل بن القاسم بن سويد ، كان أبوه نبطيا من موالي بني عنيزة ، وكنيته أبو إسحاق ، وأمه أم زيد بنت زياد مولي بني زهدة القرشيين .

نشأ أبو العتاهية بالكوفة ، وولد بها في حوالي سنة ١٣٠ هـ في أخريات دولة بني أمية وتوفي في بغداد سنة ٢١١ هـ .

تفتحت عيناه على صراع دام بين دولة بني أمية الآيلة للسقوط ودولة بني العباس الساعية لأخذ الخلافة ، كما شاهد أساليب بني العباس وحيلهم في الحكم ، وأخذهم بيد من حديد لكل من تسول له نفسه الوقوف أمامهم أو محاولة تقويض حكمهم ، وشاهد أيضا الهوة بين الطبقات في المجتمع ورأي الفقراء والمساكين وهم يتضورون جوعاً ويئنون من العوز والفقر .

كان أبو العتاهية في بداية حياته يتخنث ويحمل زاملة المخنثين ، وكان وأهله يعملون الجرار الخضر ، كما كان أبوه حجاماً من أهل ورجة ، كما كان في أبي العتاهية ميل إلى اللهو والمجون ، فانخرط في جماعة المخنثين ممن كانوا يخضبون أيديهم ويتزينون ويلبسون ملابس النساء فتعلم كيادهم وحمل زاملتهم ، واحتك بجماعة من مُجان عصره أمثال والبة بن الحباب ومطيع بن إياس .

ثقافته :

لم يؤثر عن أبي العتاهية أنه انكب على دواوين الشعر القديم بالقراءة والحفظ أو تمثلها وحاول محاكاتها ، أو ارتحل لطلب العلم ، أو كان راوية لشاعر أو نحو ذلك . بل غاية ما هنالك اختلافه – في صباه – إلى حلقات العلماء من اللغويين والمتكلمين في مساجد الكوفة فإذا أضفنا إلى ذلك موهبة فطرية ، وطبيعة سمحة متواتية وبيئة شعبية تربي فيها ، وتعامل معها استطعنا أن نقف على مصدر ثقافته بل ونوعيتها أيضا .

اتصاله بالخلفاء :

اشتهر أبو العتاهية بلغته السهلة وبغزله الرقيق المشاكل لكلام النساء فتغـزل بالجواري والمغنيات غزلاً نشره نشراً في نوادي القيان والمغنيين ، وسرعان ما توثقت صلته بإبراهيم الموصلي – وكان من أكبر المغنيين بالكوفة آن ذاك – وقد أغراه إبراهيم بترك الكوفة معه ومغادرتها إلى دار الخلافة ببغداد لعلهما يجـدان لبضاعتهما سوقاً رائجة بها . وفتحت الأبواب أمام الموصلي بينما وصدت أمـام أبي العتاهية ، مما جعله يفكر في العودة إلى الكوفة ، وينزل – وهو في طريقه إليها – الحيرة ويتعلق بجارية نائحة من جواري عبد الله بن معن تسمي سـعدى فأخذ يرسل فيها قصائد من الغزل الرقيق ، ولكنها أعرضت عنه ولم تلق سـمعاً لغزله بل أغرت مولاها عبد الله بن معن فهجاه أبو العتاهية هجاء مقذعاً أوغـر صدره فأنزل به العقاب ويقال إنه ضربه مائة سوط ، وتوسط له مواليه من عنزة وكف أبو العتاهية لسانه .

وفي خلافة المهدي – وبعد أن توثقت صلة صديقه إبراهيم الموصلي بالخليفة المهدي – أرسل إليه إبراهيم ودعاه للقدوم إلى بغداد وقدمه له ، فأعجب المهدى بشعره وقربه منه وأغدق عليه الجوائز والهبات . وأوسع له في مجلسـه حتـى صار من خاصته وندمائه وظل على هذه المكانة عنده حتى تعلق بجاريـة مـن جواري رائطة بنت أبي العباس السفاح عم الخليفة المهـدي وزوجتـه ، وأخـذ يرسل فيها غزله الرقيق ويتوسل إليها بأشعار تفيض بالعاطفـة . ولكـن تـأتى الرياح بما لا تشتهي السفن . فقد كانت هذه الجارية لا تبادلـه الهـوى فشـكته لمولاتها رائطة وذاع خبره في القصر فغضب عليه المهدي وضربه مائة سـوط وسجنه ، ثم شفع فيه يزيد بن منصور الحميرى خال الخليفة المهدي ، فعفا عنه المهدي وعاد الشاعر إلى ما كان عليه من مكانة لدى الخليفة .

وتتوثق علاقته بمجموعة من شعراء اللهو والمجون في عصره أمثال والبة بن الحباب ومطيع بن إياس وأبي نواس ، فعلّوا ونهلوا من كؤوس الخمر في الأديرة ودور القيان .

وتستمر مكانة أبي العتاهية – كشاعر بلاط – في عصر الهادي بعد المهدي ومن بعدهما الرشيد . وتتوثق علاقته بالرشيد وينقطع إليه أبو العتاهية ويفيض عليه الرشيد من عطاياه .

كما تتوثق علاقته ببعض رجالات الدولة وقوادها أمثال يزيد بن مزيد الشيباني .

وفي سنة ١٨٠ هـ نرى شاعرنا يتحول كُلية عن حياة اللهو والقصف والمجانة إلى حياة الزهد والانقطاع والتقشف ولكن أنّى له ذلك ودار الخلافة تبغي غير ذلك ، فما أن علم الرشيد بمسلكه الجديد وتحوله عن بلاطه ورغبته عنه حتى صب عليه كؤوس غضبه فحاول بادئ الأمر أن يثنيه عن عزمه بالسجن .

ولما أقام أبو العتاهية على مسلكه أخذه الرشيد وأمر بضربه وحبسه ، ونزل أبو العتاهية تحت وطأة الحبس على رغبة الرشيد ، وأخذ في إرسال شعر الغزل ثانية ، ولما ملّ أبو العتاهية هذه الحياة التي يحياها القصر أزمع العودة إلى الزهد بلا رجعة وحبسه الرشيد ثانية ، وأخذ أبو العتاهية يرسل من سجنه استعطافاته للخليفة مذكراً إياه بالمصير المحتوم وعاقبة الظلم ، حتى رق الرشيد لحاله وتركه ومسلكه لما وجد منه عزماً وتصميماً على هدفه . [١]

---

(١) انظر الأغاني طبعة دار الكتب ج ٤ – ترجمة أبي الفرج الأصفهاني لأبي العتاهية ص ٦٩ .

عقيدة أبي العتاهية وزهده

تشكك بعض معاصري أبي العتاهية – أمثال حمدويه ومنصور بن عمار وسلم الخاسر في عقيدته وتبعهم ابن المعتز وقد بني شكه على مرويات رُويت عن الشاعر فيها ما يوهم زندقته [١] وإلحاده ومانويته .

يقول ابن المعتز في ترجمته [٢] لأبي العتاهية كنيته أبو إسحاق وهو مولى لعنزة ، ويرمي بالزندقة مع كثرة أشعاره في الزهد والمواعظ وذكر الموت والحشر والجنة والذي يصح لي أنه كان وثنياً .

وقد ردد بعض كتابنا المحدثين نفس القول في عقيدته منهم د.شوقي ضيف ، د. سعد شلبي ، د. عبد العزيز الكفراوي .

ومن الروايات التي استند إليها من اتهم أبا العتاهية بالزندقة ما جاء في الأغاني .

قال صاحب الأغاني أخبرني محمد بن يحي الصولى قال حدثنا أبو ذكوان قال حدثنا العباس بن رستم قال : كان حمدويه صاحب الزنادقة قد أراد أن يأخذ أبا العتاهية ، ففزع من ذلك وقعد حجاما [٣] .

ونقول هنا : هل مجرد إرادة حمدويه أخذه أو شكه فيه تستوجب زندقته ؟

---

(١) وكلمة زندقة ليست عربية وإنما هي تعريب لمصطلح إيراني كان يطلقه الفرس على صنيع من يؤولون "الأوفيستا" كتاب داعيتهم زرادشت تأويلاً ينحرف عن ظاهر نصوصه ومن أجل ذلك نعتوا به دعوة ماني ومن فتنوا بها من الفرس ، وأخذ مدلول الكلمة يتسع في العصر العباسي ليشمل كل من استظهر نحلة من نحل المجوس ، واتسعت أكثر من ذلك فشملت كل إلحاد بالدين الحنيف وكل مجاهرة بالفسق والإثم .

انظر د. شوقي ضيف – العصر العباسي – العاشرة ص ٧٩ ، ط دار المعارف .

(٢) طبقات ابن المعتز تحقيق عبد الستار فراج ط ٤ دار المعارف ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ والوثنية يقولون بأن الآلهة اثنتان إله الخير وإله الشر .

(٣) الأغاني أبو الفرج الأصفهانى طبعة دار الكتب ج ٤ ص ٧ .

وهناك رواية أخرى تؤكد صدق طوية الشاعر وحسن إسلامه وهى كما جاءت في الأغاني عن محمد بن أبي العتاهية قال : كانت لأبي العتاهية جارة تشرف عليه ، فرأته ليلة يقنت ، فروت عنه أنه يكلم القمر ، واتصل الخبر بحمدويه صاحب الزنادقة ، فصار إلى منزلها وبات وأشرف على أبي العتاهية ، ورآه يصلي ولم يزل يرقبه حتى قنت ، وانصرف إلى مضجعه وانصرف حمدويه خاسئا [١] .

فهذه الرواية تبين إلى أي حدٍ كانوا يتعقبون من في دينهم زيغ ، وكيف ظهرت براءة الشاعر وانتفى عنه ما يوهم زندقته .

ومما تجدر الإشارة إليه – في هذا الموضوع – أن الشاعر كان آنذاك من المقربين إلى المهدي ومن بعده الهادي ، ثم الرشيد وكان الأول حريصا كل الحرص على تتبع الزنادقة حتى أنشأ لهم ديواناً لتعقبهم ومن تثبت عليه الزندقة كان يقتل بلا هوادة فهل من المعقول أن يخفى أمر بائع الجرار هذا على الخليفة وعلى حمدويه الذي كان يتعقبه المرة تلو الأخرى ؟

وهل من المعقول أيضاً أن يأمر الرشيد مؤدب ولده أن يروي لهم شعر أبي العتاهية وهو متهم عنده بالزندقة ؟

والرواية كما جاءت في الأغاني [٢] ، كان الرشيد معجباً بشعر أبي العتاهية فخرج إلينا يوماً وفي يده رقعتان على نسخة واحدة فبعث بأحدهما إلى مؤدب ولده وقال : ليروهم ما فيها ودفع الأخرى إليّ وقال غن في هذه الأبيات ففتحتها فإذا فيها :

قل لمن ضن ببرده	وكوى القلب بصده
ما ابتلي الله فؤادي	بك إلا شؤم جدّه
أيها السارق عقلي	لا تضنّن برده

---

(١) الأغاني أبو الفرج الأصفهانى طبعة دار الكتب ج ٤ ص ٣٥ .

(٢) الأغاني ط دار بيروت ج ٤ ص ٩٧ .

ما أري حُبّك إلا بالغاً بي فوق حدّه

إن اتهام أبي العتاهية بالزندقة لا يعدو أن يكون أكثر من تشنيع وحنق وعداوة بين الشاعر وبين منصور بن عمار الذي أشاع أمر زندقته ورماه بها وهذا نفسه ما أورده صاحب الأغاني ، والرواية كما جاءت [1] يقول أبو الفرج أخبرني يحي بن علي إجازة قال حدثني ابن مهروية قال حدثني العباس بن ميمونة قال حدثني رجاء بن سلمة قال :

سمعت أبا العتاهية يقول : قرأت البارحة عم يتساءلون ، ثم قلت قصيدة أحسن منها ، وقال : وقد قيل إن منصور بن عمار شنع عليه بهذا ، قال يحي بن علي حدثنا ابن مهروية قال حدثني أبو عمر القرشي قال : لما قص منصور بن عمار على الناس مجلس البعوضة قال أبو العتاهية : إنما سرق منصور هذا الكلام من رجل كوفي فبلغ قوله منصوراً فقال : أبو العتاهية زنديق أما ترونه لا يذكر في شعره الجنة ولا النار وإنما يذكر الموت فقط فبلغ ذلك أبا العتاهية فقال فيه :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً إذا عبت منهم أموراً أنت تأتيها
كالملبس الثوب من عُري وعورته للناس بادية ما أن يواريها
فأعظم الإثم بعد الشرك تعلمه في كل نفس عماها عن مساويها
عرفناها بعيوب الناس تبصرها منهم ولا تبصر العيب الذي فيها

فلم تمض إلا أيام يسيرة حتى مات منصور بن عمار فوقف أبو العتاهية على قبره وقال : يغفر الله لك أبا السري ما كنت رميتني به .

والمتحقق في الروايتين يتأكد له أن رمي أبي العتاهية بالزندقة لم يكن على سبيل التحقيق واليقين . فالرواية الأولى كانت تشنيعاً وافتراء والثانية تؤكد أن رمي منصور له إنما كان على سبيل التشفي والانتقام لمّا اتهمه أبو العتاهية بسرقة حديث البعوضة من رجل كوفي . أما اتهام منصور له بأنه لا يذكر في

---

(١) الأغاني ط بيروت الثانية ١٩٩٢ م شرح سمير جابر ج ٤ ط ٣٨ .

شعره الجنة ولا النار وإنما يذكر الموت فقط فيبدو أن منصوراً لم يقرأ شعر الرجل فما بقي من شعره يزخر بالكثير من الأشعار التي يذكر فيها الجنة والنار والحساب والعقاب والحشر والصراط الوقوف بين يدي الخالق عز وجل يكثر فيها من التبتل والضراعة وطلب الصفح والمغفرة من الله تعالى ، وأن يتجاوز الله عنه وعما اقترفه من الإثم .

هلاّ قرأ منصور قول أبي العتاهية : (١)

اذكر معادك أفضل الذكر ... لا تنس يوم صبيحة الحشر
يوم الكرامة للأولي صبروا ... أنهارهم من تحتهم تجري

وهلاّ قرأ قوله في وصف المتقين يوم القيامة (٢) :

للمتقين هناك نزل كرامة ... علت الوجوه بنضرة وجمال
زمراً أضاءت للحساب وجوهها ... فلها بريق عندها وتلالي
وسوابق غر محجلة جرت ... خمص البطون خفيفة الأثقال

من كل أشعث كان أغبر ناحلاً ... خلق الرداء مرقع السربال

ويقول أيضاً (٣) :

ألا مَنْ لمهموم الفؤاد حزينه ... إذا ابتز منه العزم ضعف يقينه
وإذا هو لا يدري لعل كتابه ... سيعطاه منشوراً بغير يمينه
ويلتمس الإحسان بعد إساءة ... فلا تحسبن الله غير معينه

---

(١) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ / كرم البستاني – بيروت – لبنان – ص ١٩٧ .
(٢) الديوان ص ٣٢٧ .
(٣) الديوان ص ٤٤٨ .

إذا ما اتقي الله امرؤ في أموره ... وكان إلى الفردوس جل حنينه
سعي يبتغي عونا على البر والتقي ... ليبتاعه من ماله بثمينه
فصف خدينا ما استطعت من القذى ... ألا إنما كل امرئ بخدينه

ويقول أيضا [١]

لا تكذبن فإنني ... لك ناصح لا تكذبنه
وانظر إلى نفسك ما استطعـ ... ـت فإنها نار وجنه

وسنفرد الحديث عن الجنة والنار ، والحساب والعقاب عنده فيما بعد إن شاء الله .

ومما أورده الأصفهاني [٢] ويتصل بعقيدة أبي العتاهية ورميه بالزندقة أيضا ما جاء على لسان محمد بن جعفر قال حدثني موسى عن أحمد بن حرب عن محمد بن أبي العتاهية قال لما قال أبي في عتبة :

كأن عتبة من حسنها ... دمية قس فتتت قسها
يا رب لو أنسيتها بما ... في جنة الفردوس لم انسها

شنع عليه منصور بن عمار بالزندقة وقال : يتهاون بالجنة ويبتذل ذكرها في شعره بمثل هذا التهاون ، وشنع عليه أيضا بقوله :

إن المليك رآك أحسـ ... ـن خلقة ورأي جمالك
فحذا بقدرة نفسه ... حور الجنان على مثالك

وقال : أيصور الحور على مثال امرأة آدمية والله لا يحتاج إلى مثال ! ووقع له هذا على ألسنة العامة فلقي منهم بلاء [٣] .

ولا شك أن هذه الأشعار ومثيلاتها لا تعدو أكثر من أن تكون مبالغات سلكها أبو العتاهية يجاري بها شعراء الغزل وفحول الصبابة ويبرهن بها على صدق

---

(١) الديوان ص ٤٥٠ .
(٢) الأغاني في ترجمته لأبي العتاهية ط بيروت – شرح سمير جابر ج ٤ ص ٥٥ .
(٣) الأغاني شرح الأستاذ / سمير جابر – الطبعة الثانية سنة ١٩٩٢ – بيروت ص ٥٥ .

وده وشدة حبه ، فهذه الأشعار تصور شغف الشاعر بالمحبوبة شغفاً أدى به إلى اللغط والخطأ بل والمبالغة في الوصف حتى يرضى غرورها كأنثى ويكسب حبها كمحبوبة ، خاصة إذا علمنا أن هذه المرأة كانت لا تبادله الصبوة فاضطر إلى المبالغة لعلها ترق لحاله وتحن إليه وتبادله الهوى .

سلم الخاسر وأبو العتاهية :

ممن اتهموا أبا العتاهية بالزندقة وأن زهده لم يكن عن إيمان ، وإنما تزهد نفاقا ورياء سلم الخاسر .

فقد روى صاحب الأغاني قوله أنشد للمأمون بيت أبى العتاهية يخاطب سلم الخاسر .

تعالى الله يا سلم بن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال

فقال المأمون إن الحرص لمفسد للدين والمروءة ، والله ما عرفت من رجل قط حرصا ولا شرها فرأيت فيه مصطنعاً فبلغ ذلك سلما فقال : ويلي على المخنث الجرار الزنديق ، جمع الأموال وكنزها وعبأ البدر في بيته ثم تزهد مراءاة ونفاقا فأخذ يهتف بي إذ تصديت للطلب .

ألم تر معي أن رمي سلم أبا العتاهية بالزندقة وعدم صدق زهده جاء ردّ فعل ثوري لشعر أبي العتاهية فيه ، ونحن نعذر سلم في هذا الاتهام إذ قد يصل شعر أبي العتاهية إلى مسامع الخليفة الذي هو مطمح الأنفس ومعقد آمال الشعراء – فإذا سمع الخليفة هذا الشعر في شاعر يبغي المكانة عنده ألا يثير ذلك حفيظة الشاعر ويستوجب نقمته ولو بالكذب والافتراء على أبي العتاهية خاصة إذا علمنا أن من أشنع التهم وأصعبها على الرجل في هذا العهد هي الرمي بالزندقة .

منصور بن المهدي وأبو العتاهية :

روي صاحب الأغاني [1] ما كان بين منصور بن المهدي وأبي العتاهية فقد

---

(١) الأغاني شرح أ/ سمير جابر – دار الكتب العلمية – بيروت ج ٤ ص ٩١ .

كان لأبي العتاهية بنتان اسم إحداهما لله والأخرى بالله . فخطب منصور بن المهدي لله ، فلم يزوجه ، وقال : إنما طلبها لأنها بنت أبي العتاهية ، وكأني بها قد ملها ، فلم يكن لي إلى الانتصاف منه سبيل ، وما كنت لأزوجها إلا بائع خزف وجرار ولكني أختاره لها موسرا .

فهل من المعقول أن منصور بن المهدي يطلب مصاهرة أبي العتاهية وهو متهم عنده بالزندقة ؟

ولنقرأ معاً ما حدث بين أبي العتاهية وأبي نواس " فقد جلس أبو العتاهية يوما يعذل أبا نواس ويلومه في استماع الأغاني ومجالسته لأصحابه فقال له أبو نواس :

أتراني يا عتاهي ... تاركاً تلك الملاهي

أتراني مفسداً بالنسـ ... ـك عند القوم جاهي

قال فوثب أبو العتاهية وقال: لا بارك الله عليك ، وجعل أبو نواس يضحك [١] .

فالنسك – في ظن أبي نواس – مفسد للجاه والمنزلة ويحط من قدر الرجل ورغم ذلك آثر أبو العتاهية الزهد على اللهو والصخب والمجانة ، ألا يجعلنا هذا الموقف نكبر أبا العتاهية ونجله إذ استنكر هذه الحياة الخليعة ورفضها .

ومما يؤكد صحة معتقد الرجل وتوحيده الخالص لله عز وجل ما رواه صاحب الأغاني إذ جاء في ترجمته لأبي العتاهية قوله : حدثنا محمد بن يحي قال حدثنا محمد بن الرياشى قال حدثنا الخليل بن أسد النوشجانى قال جاءنا أبو العتاهية إلى منزلنا فقال : زعم الناس أنى زنديق والله ما ديني إلا التوحيد فقلنا له فقل شيئا نتحدث به عنك فقال [٢] :

---

(١) انظر القصة في الأغاني – طبعة دار الكتب – ترجمة أبو الفرج لأبي العتاهية – الجزء الرابع .

(٢) الأغاني ط دار الكتب ج ٤ ص ٣٥ .

ألا إننـــا كلنـــا بائـــد وأي بنـــي آدم خالـــد
وبدؤهم كان من ربهـــم وكل إلى ربـه عائـــد
فيا عجبا كيف يعصى الإلـ ـه أم كيف يجحـده الجـاحد
وفي كل شيء لـه آيـة تـدل علـى أنـه واحـد

ألا يدل حب أبي العتاهية للناسكين وإعجابه بصدق تبتلهم ومدحه لطـريقتهم على صدق معتقده ، أو على الأقل على حبه لأهلها إذ هم في رباط دائم مـع الله سبحانه وتعالى [١] .

فقد أنشأ عبد الواحد بن زيد (ت ١٧٧ هـ) رباط عبَّادان ، وعُرف عن عبد الواحد وأهل طريقته كعبد الله بن المبارك والفضل بن عياض وسفيان بن عيينة صدق النسك ، أليس في حبه لهؤلاء وشغفه بمسلكهم وطريقتهم دليل على صدق تدينه .

فقد قال في رباط عبادان [٢] :

سقى الله عبّادان غيثا مجلـلا فـإن لهـا فضـلا جديـداً وأولا
وثبّت من فيها مقيماً مرابطـاً فمـا أن أرى عنهـا لـه متحـولا
إذا جئتها لم تلق إلا مكبـراً تخلـى عـن الـدنيا و إلا مهلـلاً
فأكرم بمن فيها على الله نازلاً وأكرم بعبّـادان داراً ومنـزلاً

وأخيرا – أستدل بالوضوح البادي في شعر أبي العتاهية – على صدق زهده وصحة مسلكه ، والمتمثل في مجموعة المعاني الزهدية والإلحاح فيهـا والتـي ينثرها نثراً في ديوانه والتي تدور في معظمها حول التبتل والإنابـة ، وطلـب الصفح والعفو من الله تعالى ، وكذلك إعجاب الخلفاء بشعره بل عامـة النـاس وسوادهم ، فقد جاء في كتب الأدب تأثر الرشيد بعظاته وكثرة بكائه ونحيبه من

---

(١) عبَّادان مدينة على مصب دجلة في بحر فارس ، كان فيها قوم مقيمون للعبادة والانقطاع الأنوار الزاهية ص ٢١٨ .

(٢) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. اكرم البستاني ص ٣٥٣ .

بعض أشعاره الوعظية ، فقد روى صاحب الأغاني [١] أن الرشيد قال لأبي العتاهية عظني ، فقال : أخافك . فقال له أنت آمن فأنشده :

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس وإن تمنعت بالحجاب والحرس
وأعلم بأن سهام الموت نافذة في جنب مدرع منها ومترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

وسمعنا من مشايخنا وأساتذتنا أن الكلام إذا خرج من القلب وصل إلى القلب ، وإذا خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان .

أوردنا فيما سبق ما رواه صاحب الأغاني عن معاصري أبي العتاهية من الطاعنين في دينه وصحة معتقده . وفندنا هذه الروايات بما يحمله النص من معانٍ واضحة تؤكد براءة ساحة الشاعر مما لصق به من زندقة وإلحاد .

بقي لنا أن نقف في هدوء مع ما قاله أدباؤنا المحدثون عن زهد الرجل ومعتقده .

وفي الحقيقة – نجد أن هذا الجانب من جوانب الشاعر – من حيث تناول الأدباء له – ينقسم إلى شقين متباينين :

– شق ينصف الرجل ويدافع عنه وعن عقيدته وزهده .

– وشق يحاول أن يحط من شأنه ويقلل من قيمة أدبه ، بل ويدلل على ممالقته في زهده وكذبه فيه .

وممن يقولون بصحة معتقده وصدق زهده الأستاذ أنيس المقدسي يقول[٢] في كتابه أمراء الشعر في العصر العباسي عند حديثه عن أبي العتاهية واتهامه بمذهب الفلاسفة : أما زندقته واتهامه بمذهب الفلاسفة ، فليس في شعره ما يثبتها ولم يذكره ابن النديم في جملة شعراء الزنادقة الذين عاصروا أبا العتاهية ، وكل ما رأينا من هذا القبيل أن قوما من أهل عصره كانوا ينسبونه إلى القول بمذهب

---

(١) الأغاني – دار الكتب العلمية – بيروت ج ٤ ص ١١٢ .

(٢) انظر : أمراء الشعر في العصر العباسي- ط بيروت دار العلم للملايين – ص ١٥٠ .

الفلاسفة ويحتجون بأن شعره إنما هو في ذكر الموت دون الآخرة وليس هذا بصحيح . ويعلق د/ أنيس على الأبيات التي اتهم فيها بالزندقة كقول أبي العتاهية :

يا رب لو أنسيتها بما ... في جنة الفردوس لم أنسها

وقوله :

إن المليك رآك أحسن خلقة ... ورأى جمالك

فحذا بقدرة نفسه ... حور الجنان على مثالك

بقوله: وليس في هذه الأبيات عند التحقيق غير مبالغات قد تجري علي لسان المؤمن لتقرير وإيضاح معنى شعري ... ونقلوا عن الصوالى قوله بالجوهر بين المتضادين كالوثنية وقوله بالجبر وما شاكل .. وقد جاراهم العلامة زيدان فقال في تاريخه وكان أبو العتاهية سوداوي المزاج كثير التردد في أمر الدين متقلباً على أطوار شتي شأن الذين يحلون أنفسهم من قيود الدين ، وينظرون فيه نظر الناقد على أن الناظر في شعره لا يجد فيه سوى رجل متزيٍّ بزي الفقراء متغل بأناشيد الزهد ، وليس فيه أثر لنظر نقدي في الكون أو لنزعة فلسفية .

وقد ردد أ . عمر فروخ ما أشاعه معاصروا أبي العتاهية دون إبداء رأى .

يقول [١] : لقد شك المعاصرون لأبي العتاهية ومؤرخوا الأدب من بعدهم في صدق أبي العتاهية في زهده ، واعتقدوا أنه كان يصطنع القول فيه اصطناعا حتى قال سلم الخاسر :

ما أقبح التزهيد من شاعر ... يزهد الناس ولا يزهد

وحمل الناس على الشك في زهده ، أنه كان فقيراً مقتراً على أهله وعلى نفسه ، محباً للهو حتى بعد انتقاله إلى القول في الزهد .

---

(١) تاريخ الأدب العربي الأعصر العباسية – ط الأولى سنة ١٩٨٦ – دار العلم للملايين – بيروت ص ١٩١ .

وممن تحاملوا على الشاعر أيضا [١] د. شوقي ضيف إذ يقول عند حديثه عن زندقته : وابن حرب يضع في أيدينا المفتاح لحل مشكلة أبي العتاهية فهو ليس مانويا وثنيا يؤمن بأن للعالم إلهين كما ظن ابن المعتز وبعض معاصريه ، إنما هو مانوي من نمط جديد إذ يمزج بين المانوية والإسلام إلا إذا كان قد موّه عن مانويته الخالصة بادعائه وحدانية ربه .

ولو وافقنا – جدلا – أن أبا العتاهية مانوي المذهب فإن المانوي الصادق يعيش على المسألة فلا يأكل إلا من كسب غيره الذي عليه غرمه ومأثمه فهو يحرم على نفسه وعلى غيره ، ويعيش على السؤال والاستجداء ، فكيف يقبل هذا عن أبي العتاهية الذي قعد حجاما بعد أن تزهد فترة ثم قبع في بيته واستغنى عن الناس جميعاً [٢] .

ومن المقرر أيضا أنه زجر ولده وحثه على العمل والكسب عندما رآه يعتكف ويتفرغ للعبادة [٣] .

ونجد د.عبد العزيز الكفروای يرفض زهد أبي العتاهية ويصفه بأنه نوع من التهريج والمغالطة . وألف كتابا تقترب صفحاته من المائتين سماه " أسطورة الزهد عند أبي العتاهية " أكثره تحامل على الرجل وتحميل النص أكثر مما يحتمل .

ويشير في مقدمة كتابه إلى هذا الرفض لهذا الزهد الذي ادعاه أبو العتاهية– في ظنه– فيقول في مقدمة كتابه [٤] :

---

(١) تاريخ الأدب العباسي العصر الأول – د. شوقي ضيف ص ٢٤٢ .

(٢) انظر الحيوان تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة – عيسى البابى الحلبي ١٩٤٥م ج ٤ ص ٥٠ .

(٣)الأغاني ط دار الكتب ج ٤ ص ٥٠ .

(٤) أسطورة الزهد عند أبي العتاهية طبعة نهضة مصر ، القاهرة ، ص ٧ .

تقدمت بهذا البحث إلى جامعة لندن ١٩٥١ وأشرت إليه فيما نشرت من بحوث وكتبت ملخصاً له في مجلة الرسالة بالقاهرة في ربيع ١٩٥٢ م ، وكان كل هذا كافياً لأن يعرف عنه الناس شيئا ويعرفوا أن زهد أبي العتاهية كما فهمته الأجيال السابقة نوعا من المغالطة والتهريج .

ومن حين لآخر نجده يؤكد أن زهده زهد غير صادق فنراه يقول في ص ٦٢ : " وما يسمى بشعر الزهد عنده ماهو إلا ثمرة لآلام نفسية ، وأحقاد دفينة يحملها بين جنبيه للطبقات العليا في المجتمع من جهة ، وخدمات سياسية يؤديها للفضل بين الربيع وزبيدة من جهة أخرى .

ونناقش د. الكفروای في قوله السابق بقولنا إن زهد أبي العتاهية زهد صادق ونابع من إحساس الشاعر برزء المصيبة وفداحة الخطب ، وسوء أحوال الرعية وانغماس دار الخلافة في الملذات ، وتفننهم في صنوف الزينة – وهو الذي شاهد صباح مساء هذه المظاهر– وشاهد أيضا سوء أحوال العامة وسواد الناس واقترب منهم ورأى معاناتهم الفقر وتجرعهم غصص الحرمان . لم لا نقول إن الشاعر قد تولد عنده شعور صادق برزء المصيبة وعاش أزمة نفسية قاسية من جراء هذا التناقض البين بين عيشة القصر وذل الفقر بين عيش السعداء ونقمة الأشقياء ، وخرج من هذه الأزمة النفسية بقرار العزلة والرضا بالقناعة والزهد والانقطاع عن الناس . فما دام لا يستطيع تغيير أحوال الخلافة والأخذ بيد الضعفاء الأشقياء فليس ثمة إذن غير العزلة والزهد وحمل النفس على الطاعة ونهيها عن التمادي في الانغماس في الشهوات حتى الممات .

ويستمر د. الكفروای في التحامل على الرجل فيقول عند بيان موقف الشاعر من المذهب الشيعي [١] .

يقول صاحب الأغاني : كان يتشيع بمذهب الزيدية البترية المبتدعة لا ينتقص

---

(١) أسطورة الزهد عند أبي العتاهية ص ١١٧ .

أحداً ولا يرى مع ذلك الخروج على السلطان .

نصدقه في الأولى فهو لا ينتقص أحدا من الخلفاء الراشدين ونتهمه بالكذب الصريح في الأخرى ، لأن شعره مليء بالحقد على السلطات الحاكمة ، فكيف يقول أبو الفرج بعد ذلك أنه لا يرى الخروج عليهم ، ولذا ننظر إلى تلك العبارة على أنها نوع من التقية المعروفة بين الشيعة .

ونرد على الدكتور بطرح عدة أسئلة عليه : هل من يسدى النصح للإمام يكون خارجا عليه ؟ هل من ينقل إليه الحقيقة عارية مكشوفة بلا مواربة حتى يرعوى ، ويعمل للحقيقة التي لا مراء فيها وهى الموت وما بعده .... يكون خارجا عليه ؟ هل يطلب من الزاهد " لا نقول الصوفي " أن يقبع في صومعته ، ويرى ما عليه الحكام من فساد ويمضي قائلا لا يعنيني ؟

ومن العجيب أن الدكتور الكفروای نفسه يردد الأبيات التي يتهم من أجلها أبو العتاهية أن زهده زهد مانوى مارق متأثر فيه ببوذا وليس متأثرا فيه بالإسلام فنراه يورد قول أبو العتاهية [١] :

يا من تشرف بالدنيا وطينتها ... ليس التشرف رفع الطين بالطين

إذا أردت شريف الناس كلهم ... فانظر إلى ملك في زى مسكين

ويعلق عليه بقوله :

إن هارون هو المشار إليه في البيت الأول ، لأن عظمته ترجع إلى سيطرته على بقعة من الأرض أما الكاظم [٢] هو المشار إليه في البيتين التاليين ، وقد لفتت هذه المقطوعة بعض كبار المستشرقين ، وذهب جولدزير إلى أن الإشارة إنما هي إلى بوذا ، وذهب نيكلسون إلى أنها ليست في شخص محدد ، ولكن تصلح لأي زاهد في الحياة الدنيا . وعندي أن الأول قد اقتلع الأبيات من تربتها ، حين ذهب بها إلى بوذا ، مع أننا نشك في معرفة المجتمع العربي الذي كان

---

(١) أسطورة الزهد عند أبي العتاهية ص ١١٩ .

(٢) المراد به موسي الكاظم أما الشيعة في عهد الرشيد وكان معروفا بالتقوى والورع .

الشاعر يتحدث إليه ببوذا ، أو اهتمامه بتعاليمه ، على أن قوله : " فانظر" يدل على أن المشار إليه كان بينهم .

ثم قوله بعد ذلك : يصلح للدنيا وللدين وترديده لقضية هامة من قضايا الحكم في الإسلام ، وهى الجمع بين السلطة السياسية والنفوذ الروحي ، وجميع ذلك يؤكد أن الحوار والموازنة كانت بين هارون والكاظم .

ومن المهم أن نذكر أن الدكتور الكفروای رغم تحامله على أبي العتاهية في جانب الزهد يدافع عنه في جانب العقيدة ، ويدفع زندقته وإلحاده فبعد أن أورد الأشعار التي فيها ما يوهم زندقته وإلحاده ومنها قوله :

كأن عتابة من حسنها ... دمية قس فتتت قسها

يا رب لو أنسيتها بما ... في جنة الفردوس لم انسها

وقوله :

إن المليك رآك احـ ... ـسن خلقه ورأى جمالك

فحذا بقدرة نفسه ... حور الجنان على مثالك

قال : " إن منصور بن عمار شنع عليه بها واتهمه بالزندقة وقال : يتهاون بالجنة ، ويبتذل ذكرها في شعره ، ويصور الحور على امرأة آدمية ، والله تعالى لا يحتاج إلى مثال ... ثم يقول بعد ذلك :

وجميع هذه التهم لا ينهض دليلاً على ما رُمي به من زيغ وزندقة ، فهذه الأبيات التي قالها في عتبة هي مجرد مبالغة ، وربما مر بها المسلم الواسع الأفق دون أن يفطن إلى أن فيها ما يلفت النظر من الناحية الدينية ، ألست ترى أننا جميعا نطرب للأغنية القائلة " نور جمالك آية ، آية من الله آمنت بالله .... لو ذهب للنعيم ما تمنينا سواه " ، لا نتهم قائلها بكفر ولا زندقة مع الشبه الشديد بينها وبين أبيات أبي العتاهية .

أما أنه يذكر الموت فقط ، أو يكثر فيه فقد عرفت سببه من قبل حيث كان يرى فيه السبيل الوحيد للمساواة بين الناس تحت أطباق الثرى ، وهذا المعنى

يهمه أكثر من الثواب والعقاب والجنة والنار ، ومع ذلك فهنالك أمر جدير بالذكر وهو أن شعره يشتمل على أبيات كثيرة في ذكر الجنة والنار ، وفي الحقيقة أنها لا تقاس في شيوعها وكثرتها بتلك التي ورد فيها ذكر الموت ، ولكنها على أية حال تكفي للرد على ابن عمار " .

ومن العجيب أن نرى د. الكفروای يناقض نفسه مرة ثانية فبعد أن نقض زهد أبي العتاهية نراه يدافع عن زهده فيقول إن الشاعر استطاع بإخلاصه وتحمسه أن يشدنا إليه شداً ، وأن يحملنا على متابعته في رحلاته الطويلة بين القبور وأوديتها الكئيبة ، أو في حملاته على الدنيا وزخرفها إلى غير ذلك من موضوعات سبقت الإشارة إليها [١] .

ونقول : هل يمكن أن ينجح الإنسان في عمل ما ، وهو لم يجند له كل ما أوتى من قوة الحجة وصحة الدليل وصدق العاطفة ، كلا لأن الكلام – كما تعلمنا– إذا خرج من القلب وصل إلى القلب ، وإذا خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان فهل ظل الشاعر يداهن وينافق كل هذه السنوات وطيلة هذه الأبيات التي بقيت من شعره ، كلا إذا نجح في بعضها لن ينجح في البعض الآخر .

إن كلام الدكتور الكفروای السابق ترتفع به الدلالة على تفوق الشاعر بل وسبقه في هذا الفن والإخلاص فيه . وهل الإجادة والإخلاص ليسا لهما روافد ترفدهما ؟

فالدكتور يعترف أن لشعر الشاعر تأثير على المتلقي بإقرار الكثير ممن قرأ شعره سواء من خاصة الخاصة كالرشيد – الذي كان يبكي عندما يعظه أبو العتاهية – أو من العامة ممن يطربون بسماع شعره .

فهل من يقبع في بيته وينقطع عن الناس ويتبتل إلى الله تبتيلاً نتهمه بالرياء والنفاق ؟ .

---

(١) انظر أسطورة الزهد عند أبي العتاهية د / محمد عبد العزيز الكفروای – نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة القاهرة ص ١١٤ ..

هل من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ، ويرفض الدراهم والدنانير والمكانة السنية عند الرشيد – والتي يتمنى الكثير من أنداده ونظرائه من الشعراء أن يصلوا إليها – بله هذا الفقير نتهمه بالرياء وعدم الإخلاص في زهده ؟ .

ألم يكن في مقدور الشاعر – والذي لم يكن من ذوي المكانة والأصل – أن يداهن الخليفة وينافقه ، ويسير طوع أمره ووفق هواه خاصة وهو أسيره وشاعره المفضل ؟ .

إننا تعلمنا في حداثتنا أن شعر الشاعر مرآة نفسه وهناك العديد من الدراسات الحديثة تؤكد ذلك على رأسها دراسة الأستاذ العقاد لابن الرومي تحت اسم " ابن الرومي حياته من شعره " .

فشعر الشاعر مرآة صادقة تعكس سلوكه واتجاهاته وميوله وبدراسة شعر أبي العتاهية ، وكما سيتضح – إن شاء الله – نجده إنسانا صادق الزهد مخلصاً في اعتقاده نراه يلقي على نفسه باللائمة تارة ، وأخرى يتحسر. والزهد في أوجز مفهومه انصراف من شيء إلى شيء ، انصراف عن الفاني رغبة في الباقي فهو سلوك يتعلق بالنفس ويستلزم المجاهدة و الترويض ، والنفس بطبيعتها أمارة بالسوء كما اخبرنا الله عز وجل في قرآنه العزيز . فإذا كان هذا طبيعة النفس فما بالنا بنفس إنسان ذاق مرارة الحرمان وتجرع كؤوس الذل والهوان في مجتمع يقدر من يأتي بالذئب من ذيله أكثر من تقديره لمن يعرف له سبعين اسما أو ثمانين .

أنطالبه – وهو في مستهل حياته الزهدية – أن ينخلع كليّةً عن ربقة المادة وأسر الدراهم والدنانير ، ألم يحرم الله تعالى – وهو أعلم بطبيعة النفس البشرية – الخمر على ثلاثة مراحل ؟

أيحق لنا بعد هذا أن نلوم الرجل على بخله وضنه بالمال ؟ إذا صح لنا ما نقول فنود أن نضيف شيئا آخر هو أن كل الاتهامات التي وجهت إلى الشاعر وعلى رأسها أنه تزهد بعد أن كنز المال وثمّر الدراهم والدنانير جاءت في بداية

حياته الانتقالية ، أعنى أول سنوات زهده . فرأينا من يقول عنه كسلم الخاسر ورغم ذلك لم يصل إلى مسامعنا أن أبا العتاهية قد خلّف وراءه الضياع والبساتين أو القصور أو أثر عن أحد أبنائه الغني والثراء ، فأين ذهبت الدراهم والدنانير ؟ أسكر بها أولاده من بعده ؟ إنني وقفت على ترجمة العتاهية بن أبي العتاهية في طبقات الشعراء لابن المعتز فلم يذكر أنه كان ذا غناء أو ثراء ، فكل ما قاله عنه أنه كان صحيح الدِّين ورعاً ولى القضاء برهة ، وكان محمود السيرة حسن الخلق ، وكان قد جمع مع الشعر الفقه [١] ، فأين ذهبت الدراهم لو كان شاعرنا خزنها وثمنها وتركها إرثاً لأبنائه ؟

قرأنا أن البحتري كان صاحب مكانة لدى المتوكل وكان نديمه وخلف وراءه الكثير من الدور والضياع والأموال . أما أبو العتاهية فلم يكن على هذه الصورة المبالغ فيها من الغنى التي صورها بعض معاصريه أمثال سلم الخاسر .

فإذا وضعنا في أذهاننا أن أبا العتاهية كان شاعراً فقيراً لا يبتغي مكاثرة بمال بل كان يكفيه أن يصله الخليفة بدراهم معدودة تحقق لنا صحة ما نقول .

وكما قال أبو العلاء من بعده إن الكسب من وراء الشعر لا يجدي على المرء كثيراً وأخذ ينعى على الشعراء وذوي المواهب المختلفة جريهم وراء المال . فقال [٢] :

تباهوا بأمر صيروه مكاسبا ... فعاد عليهم بالخسيس من الأمر
بكسوة برد أو بإعطاء بلغة ... من العيش لاجم العطاء ولا الغمر

استمع إلى أبي العتاهية يخاطب أهل الثراء بقوله [٣] :

أغرك أنى صرت في زى مسكين ... وصرت إذا استغنيت عنى تتحيني
رضيت بإقلالي فعش أنت موسرا ... فإن قليلي عن كثيرك يغنيني

---

(١) طبقات بن المعتز – ص ٣٦٣ .

(٢) اللزوميات ط بيروت ١٩٦٩ م – ج ١ ص ٥٢١ .

(٣) الديوان ص ٤٤٦ .

وما العز إلا عز من عز بالتقي وما الفضل إلا فضل ذي الفضل والدين

ويتضح لنا -في موضع آخر من شعره - أنه كان مستور الحال ليس بالغنيّ الميسور ولا بالفقير المعدم ، يقول ملقياً على نفسه باللائمة لسعيه لجمع المال [١] :

لم يكفني جمعي لضعف يقيني حتى استطلت به على المسكين

من كان فوقي في اليسار منحته التعظيم واستصغرت من هو دوني

ألا نلتمس العذر لرجل جرَّب سؤال الناس فآثر أن يترك أولاده مستوري الحال بدلا من أن يتكففوا الناس من بعده في مجتمع لا يحنو الغني فيه على الفقير والذي صوره الشاعر في قوله [٢] :

لقد طّال يا دنيا إليك ركوني وطال لزمي ضلتي وفنوني

وطال إخائي فيك قوما أراهم وكلهم مستأثر بك دوني

وكلهم عني قليل عناؤه ذا غلقت في الهالكين رهوني

فيارب إن الناس لا ينصفونني وإن أنا لم انصفهم ظلموني

وإن كان لي شيء تصدوا لأخذه وإن جئت أبغي شيئهم منعوني

وإن نالهم رفدي فلا شكر عندهم وإن أنا لم أبذل لهم شتموني

وإن وجدوا عندي رخاء تقربوا وإن نزلت بي شدة خذلوني

وإن طرقتني نكبة فكهوا بها وإن صحبتني نعمة حسدوني

سأمنع قلبي أن يحن إليهم وأحجب عنهم ناظري وجفوني

فالأبيات تؤكد أن الرجل عاش مستوراً ليس بالكثير المال ولا بالفقير المعدم ، فتعاورته الأيام بين يسر وعسر وغنى وفقر .

ويتأكد لنا – ثانية – على أنه ليس بذي مال من تصريحه في قوله [٣] :

---

(١) السابق ص ٤٤٢ .

(٢) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني - ص ٤١٥ .

(٣) الديوان ص ٤٤٠ .

لا عيـــب فـــي جفـــوة إخـــواني فبـــارك الله لإخـــواني
لســت بذي مال فأرعى علــى الــ ـمال ، ولا صاحب سلطان
مــا يرتجــي منــي أخ شأنـــــه في نفسه أرفع من شأنــي
لا رهبة منى ولا رغبـــــــــة عندي فيرجوني ويخشــاني

أيكون غير صادق الزهد وغير صحيح العقيدة من يخاطب خليفة المسلمين عندما سجنه لتحوله إلى الزهد بقوله [١] :

ستعلم فــي الحســاب إذا التقينــا غــدا عنــد الإلــه مــن الملــوم

ونذكر هنا موقف الشاعر من منصور بن المهدي عندما أراد أن يخطب ابنة الشاعر ورفض أبو العتاهية تزويجه إياها فهل لو كان الشاعر يجري وراء الغنى والثراء والجاه رفض هذا المطلب والذي من خلاله تتوثق صلته بدار الخلافة ويزداد غنى وشرفا وكرم محتد .

وقف آخر يدل على نزاهة الرجل وصدق زهده وهو رفضه التوجه إلى ملك الروم في عهد الرشيد حين طلب ملك الروم من الرشيد ابتعاثه إليه ويأخذ منه ما شاء فما دلالة هذا الرفض ؟ [٢]

ونود أن نذكر جملة من أشعاره تعضّد القول بصدق زهده ، قبل الشروع في الدراسة الموضوعية ، فنراه ينكر على من ينهى عن خلق ويأتي مثله ويشبهه بلابس الثوب ليواري سوأته في حين أن أفعاله المخزية بادية للناس .

يقول [٣] :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهما إذا عبت فيهم أموراً أنت تأتيها
كالملبس الثوب عن عري وخزيته للناس بادية ما أن يواريها

---

(١) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ. اكرم البستاني ص ٣٩٨ .
(٢) انظر القصة في الديوان تحقيق أ. كرم البستاني ص ٣١٦ .
(٣) السابق ص ٤٦٩ .

عرفانها بعيوب الناس تبصرها منهم ولا تبصر العيب الذي فيها

ونراه يخاطب ذا الغواية والمجون بقوله [١] :

أيامن بين باطية ودن وعود في يدي غاو مغن

إذا لم تنه نفسك عن هواها وتحسن صونها فإليك عني

فإن اللهو والملهى جنون ولست من الجنون وليس مني

وأي قبيح اقبح من لبيب يرى متطربا في مثل سني

إذا ما لم يتب كهل لشيب فليس بتائب ما عاش ظني

فما دام الشيخ لم يزجره شيبه عن غيه فلا يرجى منه توبة ولا تنفع فيه عظة .

واستمع إليه وهو يخاطب نفسه قائلاً [٢] :

أأسر في الدنيا بكل زيادة وزيادتي فيها هي النقصان

ويح بن آدم كيف ترقد عينه عن ربه ولعله غضبان

ويح بن آدم كيف تسكن نفسه وله بيوم حسابه استيقان

يوم انشقاق الأرض عن أهلي البلى فيها ويبدو السخط والرضوان

يوم القيامة يوم يظلم فيه ظل م الظالمين ويشرق الإحسان

يا عامر الدنيا ليسكنها وليس بالذي يبقي لها سكان

تفنى وتبقي الأرض بعدك مثلما يبقي المناخ ويرحل الركبان

أهل القبور نسيتكم وكذلك الـ إنسان فيه السهو والنسيان

أهل البلى أنتم معسكر وحشة حيث استقر البعد والهجران

الصدق شيء لا يقوم به امرئ إلا وحشو فؤاده إيمان

ويقول أيضاً لائماً على المتشبهين بالأتقياء وليسوا منهم [٣] :

---

(١) السابق ص ٤١٤ .

(٢) الديوان ص ٤٢٠ .

(٣) السابق ٤٦٢ .

قل للذين تشبوا بذوي التقى ... لا يلعبن بنفسه متشبه
هيهات لا يخفى التقي من ذي التقى ... هيهات لا يخفى امرؤ متأله
إن القلوب إذا طوت أسرارها ... أبدت لك الأسرار منها الأوجه

ويقول :

خير اكتساب الغنى ما كان من عمل ... ذاك وصبر على عسر وميسرة
وأفضل الزهد زهد كان عن جدة ... وأفضل العلو عفو عند مقدرة
لا خير للإنسان في طمع ... يصير منه إلى ذل ومحقرة
استغفر الله من ذنبي وأسأله ... عيشاً هنيئا بأخلاق مطهرة

وبعد أن أوضحنا حقيقة الزهد عند أبي العتاهية وأنه زهد حقيقي غير مفتعل أو مصطنع أود أن أختم القول في زهده بذكر بعض أقوال الأساتذة المحدثين والذين يؤكدون أن زهده زهد حقيقي إسلامي خالص .

يقول د . عبد الله التطاوي [1] : " فمن الحقائق التي طرحها شعر أبي العتاهية في الزهد إشارته إلى مصادر ذلك الزهد ، حيث بدا فيه مسلما بعيدا عن دوافع المناوئين ، ممن استهدفوا استعادة مذهبهم القديم وتحويله إلى دين تمنوا لو استطاع أن يقف في موازاة الدين الإسلامي حتى يناهضه ، كما أنه لم يكن زاهدا على النهج المسيحي لأنه لم يدع إلى تعذيب الجسد أو الرهبنة ، ولم يقم على أساس من فكرة الخطيئة التي تبناها الرهبان .

وعلى هذا بدا زهد أبي العتاهية إسلامياً يقوم على أساس من التقشف والدعوة إلى التقوى والورع ، لم يدع من خلاله إلى رفض الزواج حيث لا رهبنة في الدين الإسلامي ، ولم يوجد من شعره ما يدعو إلى القهر الجسدي إيماناً منه بدستور الإسلام ومبادئه التي لا تحرم طيبات الله سبحانه على عباده .

" كلوا من طيبات ما رزقناكم " بل سار على نهج ما دعا إليه رسول الله صلي

---

(١) القصيدة العباسية قضايا واتجاهات دار الغريب القاهرة ص ١٤٣ .

الله عليه وسلم " إن لبدنك عليك حقا " ، فهو زهد أساسه – كما يبدو من شعره – الحرص الدائب على الآخرة ، والخوف من الحساب وعدم نسيان المصير ، وكثرة التفكير فيما وراء الموت ، على نحو سلوكي مستمر " اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً " .

وهكذا غدت فكرة الموت مصدراً من مصادر أرق الشاعر وقلقه من زخرفة حياته ، وهو قلق انتهى به إلى الرضا الكامل والاستسلام التام ، وإعداده العدة قبل مواجهة المصير المحتوم .

وبعد أن بيناً حقيقة الزهد عند أبي العتاهية تجدر الإشارة إلى بيان معاني الزهد .

قال الإمام الغزالي : " اعلم أن الزهد مقام شريف من مقامات السالكين . والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه ، فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنما عدل عنه لرغبته عنه ، وإنما عدل إلى غيره لرغبته فيه فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زاهداً ، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبة وحباً [1] .

وينتقل الغزالي إلى بيان درجات الزهد وأنها تتفاوت بحسب قوته على درجات ثلاثة :

الأولى : وهى السفلى أن يزهد الدنيا وهو لها مشته وقلبه إليها مائل ، ونفسه إليها ملتفتة ، ولكنه يجاهدها ويكفها وهذا يسمى التزهد وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد والمتزهد يذيب أولا نفسه ثم كسبه ، والزاهد يذيب أولا كسبه ثم يذيب نفسه في الطاعة لا في الصبر على ما فارقه .

---

(١) نهاية الأرب في فنون العرب – شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري مصورة عن طبعة دار الكتب نقلا عن إحياء علوم الدين للغزالي ج ٥ ص ٢٣٢ .

الثانية : الذي يترك الدنيا طوعاً لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالذي يترك درهما لأجل درهمين .

الثالثة : وهي العليا أن يزهد طوعاً ويزهد في زهده فلا يرى زهده إذ لا يرى أنه ترك إذا عرف أن الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خرقة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ، ولا يرى نفسه تاركاً شيئاً فهذا هو الكمال في الزهد وسببه كمال المعرفة .

وعلامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل ، والمدح والذَّم وذلك لغلبة الأنس بالله ، ويتفرع عن هذه العلامات علامات أُخر مثل أن يترك الدنيا ولا يبالي من أخذها .

أما التصوف فهو كما عرفه ابن خلدون [1] : هو العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق للعبادة ، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالفة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم المتصوفة .

وبعد أن بينا بالأدلة النظرية أن زهد أبي العتاهية زهد حقيقي نسوق الآن الأدلة التطبيقية والمتمثلة في نتاجه وأشعاره التي تكفي وحدها ليس فقط للتدليل على صدق الرجل في زهده بل للتدليل على معاني صوفية رائقة احتواها شعره .

فمن خلال الدراسة تبين لنا العديد من المعاني الصوفية الجميلة التي أرسى قواعدها المتكلمون في علم التصوف من الابتهالات وكثرة الاستغفار والتحسر والندم على ما فرط العبد في جنب الله ، والذكر والدعاء إلى غير ذلك .

وسنبدأ بدراسة هذه المعاني عنده .

---

(١) تاريخ ابن خلدون "المقدمة" دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان –الأولى ١٩٩٢ م ص ٥١٤ .

معاني زهد أبي العتاهية

الابتهالات :

في الحقيقة قبل قراءتي لديوان أبي العتاهية ما كنت أظن أنّ لـه هـذا الكـم الهائل من الابتهالات والأدعية الدينية – كما أوهمني البعض – وظننـت أنـي سأخوض في بحر لجي من الموت وتبعاته من تغسيل وتكفين وإقبار وما يـؤول إليه الجسد بعد الموت ، بل وجدت نفسي في روضة غناء تأخذ بمجامع الـنفس السوية وتقودها إلى طريق الاستقامة طرق النجاة في الدنيا والآخرة .

وجدت نفسي انتقل من مناجاة الحق تبارك وتعالى إلى تسـبيح إلـى دعـاء استغفار إلى تحذير إلى دعوة للأخذ بأسباب النجاة إلى الاستعداد ليوم الفراق يوم المساق إلى الله تعالى إلى الوعظ الديني والنصح لسـائر المسـلمين خاصـتهم وعامتهم حاكميهم ومحكوميهم .

وتملكني شعور بالدهشة والعجب في نفس الوقت اندهشت لهذا الكم الهائل من الأبيات الرائقة الصادقة ، وتعجبت من تجاهل المتحاملين على الرجل وافترائهم عليه ، بأن زهده مارق وجريهم وراء أبيات توهم رياء الرجـل وتـأويلهم لهـا تأويلا لا يستند على أدلة يقينية صحيحة .

أين كانت هذه الأبيات عند دراستهم شعره أم أن ديوانه واراها وأخفاها وكان مرائياً هو الآخر حتى أبدى لهم ما يشتهون أم كانت متوارية بين أطبـاق ثـرى القبور كما يدعون ؟

إننا أمام قضية تمس عقيدة الرجل وفيصلنا شعره ونتاجه فلنترك المجـال إذن لأشعاره ولذوق الناقد المنصف المحايد ليحكم عليها معنا .

وآثرت البدء بالابتهالات والأدعية الدينية لأنها ألصق المعاني بالزهد إذ هـي ثمرته التي انبثقت منه نتيجة لصفاء النفس ، وخلوصها مـن الأثـرة والأنانيـة والجري وراء ملذات رخيصة . كما أنها توقفنا على صلة العبد بخالقه سـبحانه فهي أقرب موضوعات الزهد للاستدلال على صدق الشاعر في زهده .

ولأبي العتاهية باع طويل في الابتهالات الدينية ، وهى تقترب كثيراً في فحواها ومغزاها من ابتهالات الصوفية ، وهو يستمدها من معين إسلامي خالص معين القرآن والسنة نرى بعضها يبدأ بعبارات التسبيح والآخر بالتحميد .

نراه يدعو إلى مراقبة الله تعالى ، فعلى الإنسان أن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه تعالى يراه وتلك مرتبة الإحسان .

اسمعه يقول في نبرة خافتة صادقة حزينة [١] :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ما مضى ... ولا أن ما يخفى عليه يغيب
لهونا لعمر الله حتى تتابعت ... ذنوب على آثارهن ذنوب
فياليت أن الله يغفر ما مضى ... ويأذن في توباتنا فنتوب
إذا ما مضى القرن الذي كنت فيهم ... وخلفت في قرن فأنت غريب
وإنّ امرأ قد سار خمسين حجة ... إلى منهل من ورده لقريب
نسيبك من ناجاك بالود قلبه ... وليس لمن تحت التراب نسيب
فأحسن جزاء ما اجتهدت فإنما ... بقرضك تجزي والقروض ضروب

لاحظ معي هذه الأنات الحزينة على ما فرط الشاعر في جنب الله والتي يتمنى معها غفران الذنوب من الله تعالى . وينطلق لسانه بالنطق بالحكمة تلك الحكمة التي أتته عن تجربة طويلة وطول وحدة وعزلة عن الناس .

ونراه يلهج بذكر الله تعالى ويقر له بالعزة والغلبة ، وبكونه رقيباً على خلقه قريباً منهم يجيب دعوة الداع إذا دعاه ، عليٌ قدير ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . يقول [٢] :

لك الحمد يا ذا العرش يا خير معبود ... ويا خير مسئول ويا خير محمود

---

(١) ديوانه ص ٣٤ .

(٢) الديوان ص ١٢٢ .

شهدنا لك اللهم أن لست محـدثاً ولكنك المولى ولست بمجحود [١]
وأنك معروف،ولست بموصوف وأنك موجود ولسـت بمحـدود
وأنك رب لا تزال ولم تـزل قريبا بعيداً غائبا غيـر مفقـود

ويحمد خالقه سبحانه ويمجده ويقر له بالدوام والجلال والكمال الأبدي فهو المقدر شؤون خلقه من الأزل فقد جفت الأقلام وطويت الصحف بما قدر وقضى سبحانه يقول [٢] :

ما كل شيء كان أو هو كـائن إلا وقـد جفـت بـه الأقـلام
فالحمد لله الذي هـو دائـم أبـدا ولـيس لمـا سـواه دوام
والحمد لله الـذي لجلالـه ولحكمـه تتصـاغر الأحـلام
سبحانه ملك تعـالى جـده ولوجهـه الإجـلال والإكـرام

ويعترف بفضل ربه عليه الذي حفظه من كثير من الشرور ، لذا حق له الحمد حمداً في السراء والضراء ، ويبين أن الإنسان بطبعه لا يسأم من دعاء الخيـر وإن مسه الشر فيؤوس قنوط ، يقول [٣] :

لكم فلتة لي قد وقي الله شرهـا طلبت لنفسي نفـع شـيء فضـرها
لك الحمد يا مولاي يا خالق الورى كثيرا على ماسـاء نفسـي وسـرها
أرى العين عين السخط عينا سخية وياعين ياعين الرضـا مـا اقرهـا

ويحمد ربه مثنياً عليه سبحانه ، فقد خلقه فسواه فعدله ونجاه من كثير من

---

(١) كجحود من جحده بمعنى كفر به وكذبه . والبيت من جملة الأبيات المحرفة والتي أشـار إليها د . شكري فيصل وصحة البيت :

شهدنا لك اللهم أن لست والدا ولكنك المولى ولست بمولود

انظر الأنوار الزاهية ص ٧٠ .

(٢) الديوان ص ٣٩٧ .

(٣) السابق ص ١٤٦ .

النوازل والبلايا يقول [١] :

لك الحمد يا ذا المنِّ شكرا خلقتنا ... فسويتنا فيمن خلقت وسويتا
وكم من بلايا نازلات بغيرنا ... فسلمتنا يارب منها وعافيتا
أيا رب منا الضعف إن لم تقونا ... على شكر ما أبليت منك وأوليتا
أيا رب نحن الفائزون غدا لئن ... توليتنا يارب فيمن توليتا
أيا من هو المعروف من غير رؤية ... تباركت يا من لا يرى وتعاليتا

ويعدد جملة من أسمائه وصفاته سبحانه فهو القاهر القادر اللطيف الخبير ، وهو الظاهر الباطن وهو مالك الملك بيده تصريف الأمور يقول [٢] :

كل يوم يأتي برزق جديد ... من مليك لنا غني حميد
قاهر قادر رحيم لطيف ... ظاهر باطن قريب بعيد
حجبته الغيوب عن كل عين ... وهو فيها أنس كل وحيد
حسبنا الله ربنا هو المولى ... خير مولى ونحن شر عبيد
خلق الخلق للفناء فهم ... بين شقي منهم وبين سعيد
كلنا صائر إلى الملك الديا ... ن رب الأرباب يوم الوعيد
والمنايا تأتى على كل شيء ... و البلى مرصد لكل جديد

ولاحظ معي سيطرة حقيقة الموت والمصير على مشاعره فهو دائم التفكير فيها حتى في أوقات تبتله وإخباته وأنسه بالله عز وجل .

ويقول أيضاً معدداً أسماءه وصفاته [٣] :

وهو الخفي الظاهر الملك الذي ... هو لم يزل ملكاً على العرش استوى

---

(١) السابق ص ٨٥ .

(٢) الديوان ص ١٤٦ .

(٣) الأنوار الزاهية ص ٨ . والبيت الأخير من الأبيات المحذوفة من الديوان والتي دخلها الحذف انظر شبكة المنهج على الانترنت تحت عنوان الأب لويس شيخو يحرف شعر أبي العتاهية .

وهو المقدر والمدبر خلقه وهو الذي في الملك ليس له سوى
وهو الذي يقضي بما هو أهله فينا ولا يقضي عليه إذا قضي
وهو الذي بعث النبي محمدا صلى الإله على النبي المصطفى

ونراه يحمد مولاه على أن ألهمه الحمد ويتحسر على أيامه الخالية التي مضت بلا عودة وكم كان يتمنى أن يتزود فيها بالطاعات يقول [١] :

أنا له وحده واليه إنما الخير كله في يديه
أحمد الله وهو ألهمني الحمـ ـد على المن والمزيد لديه
كم زمان بكيت منه قديما ثم لما مضى بكيت عليه

وينزه مولاه عن الكفؤ والنظير ويعدد بعض صفاته وأسمائه سبحانه فيقول[٢] :

جل رب أحاط بالأشياء واحد ماجد بغير خفاء
جل عن مشبه له ونظير وتعالى حقا على القرناء
عالم السر كاشف الضر يعفو عن قبيح الأفعال يوم الجزاء
ما على بابه حجاب ولكن هو من خلقه سميع الدعاء
لذ به أيها الغفول وبادر تحظ من فضله بنيل العطاء

واستمع إليه وهو ينزه الله سبحانه وتعالى عن الكفؤ والمثيل ويعدد جملة من أسمائه الحسنى فهو الملك العزيز ، وصراطه هو الصراط المستقيم الذي يجب اتباعه ويبين أن الإنسان مهما اجتهد في الثناء عليه سبحانه ومهما أوتي من اللسن والبلاغة لا يستطيع أن يوفيه قدره من الإعظام والإجلال .

ويردف هذه الابتهالات بالدعوة إلى الجد في الدنيا وعدم التهاون بالموت وكبح جماح النفس فيها إذ هي دار الغرور ومتاعها قليل زائل يقول [٣] :

تعالى الواحد الصمد الجليل وحاشى أن يكون له عديل

---

(١) الديوان ص ٤٦٥ .
(٢) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ. كرم البستاني ص ١٦ .
(٣) الديوان ص ٣٣٢ .

هو الملك العزيز وكل شيء ... سواه فهو منتقص ذليل
وما من مذهب إلا إليه ... وإن سبيله لهو السبيل
وكل مفوه أثني عليه ... ليبلغه فمنحسر كليل
أيا من قد تهاون بالمنايا ... ومن قد غره الأمل الطويل
ألم تر إنما الدنيا غرور ... وإن مقامنا فيها قليل

ويتخذ من تسبيح الله وتحميده سبحانه معراجا لذكر جملة من صفاته تعالى وأسمائه ، وبيان علمه سبحانه وإحاطته بجميع الأشياء ، وبث كثير من خوالج النفس وآلامها ، فهو سبحانه يعلم السر وأخفى وقضاؤه ماض في جميع عباده ، وقد ضمن لجميع خلقه الرزق .

فحري بنا إذن أن نذكره ذكرا كثيراً وأن نسبحه بكرة وأصيلا فبذكره تطمئن القلوب ، والرضا كل الرضا في ذكره سبحانه فهو الملك الذي بيده ملكوت كل شيء ، كل شيء يجري حسب مشيئته سبحانه وتعالى يقول [1] :

يبلى لكل مسلط سلطانه ... سبحانه لم يخل منه مكان
ملك هو الملك الذي من حلمه ... في النفس لم ينطق بهن لسان
ملك له ظهر القضاء وبطنه ... فالسر اجمع عنده إعلان
ملك عزيز لا يفارق عزه ... أبدا وليس لغيره السبحان
سبحان من في ذكره طرق الرضا ... ما شاء منها غائب وعيان
سبحان من تجري قضاياه على ... منه ، وفيه الروح والريحان
سبحان من هو لا يزال مسبحا ... يُعصى ويُرجى عنده الغفران
سبحان من لا شيء يحجب علمه ... لم تبل جدَّة ملكة الأزمان
سبحان من يعطى المنى بخواطر ... يعصى بحسن بلائه ويخان
كل امرئ فكما يدين يدان ... والله لا يبلي له سلطان

---

(١) الديوان ص ٤١٩ .

كم يستصم الغافلون ، وقد دعوا ... وغدا ، ولاح عليهم الحدثان
أبشر بعون الله إن تك محسنا ... فالمرء يحسن طرفه فيعان
أأسر في الدنيا بكل زيادة ... وزيادتي فيها هي النقصان
ويح بن آدم كيف ترقد عينه ... عن ربه ولعله غضبان
ويح ابن آدم كيف تسكن نفسه ... ولـه بيوم حسابه استيقان
يوم انشقاق الأرض عن أهلي البلى ... فيها ، ويبدو السخط والرضوان
يوم القيامة يوم يظلم فيه ظلـ ... م الظالمين ويشرق الإحسان

ونلاحظ أن الشاعر مزج في قصيدته بين تسبيح الله وتحميده ، وبين الدعوة إلى عبادة الله تعالى عبادة إخبات وإحسان وضراعة ، والدعوة إلى زوال الدنيا ، مستدلاً على ذلك بزوال الممالك والملوك نافذاً من ذلك كله إلى الدعوة للمراقبة ، مراقبة الإنسان لأفعاله وأقواله ، فيا خسارة ابن آدم يلتذ بالنوم وهو يوقن بقيام الساعة يوم تخرج الأرض أثقالها ، يوم يكون ظلم الإنسان ظلمات عليه ، فحري بنا إذاً أن نأخذ الأهبة ونعدّ العدة .

ويظهر – من خلال تسبيحه – تعجبه بل وإنكاره على المعاصي عدم ارعوائه رغم توالي المصائب وظهور إمارة الموت عليه من الشيب الذي يعلو رأسه .
يقول [١] :

سبحان ربك ما أراك تتوب ... والرأس منك بشيبه مخضوب
سبحان ربك ذي الجلال أما ترى ... ثوب الزمان عليك كيف تثوب
سبحان ربك كيف يغلبك الهوى ... سبحانه إن الهوى لغلوب
سبحان ربك ما تزال وفيك عن ... إصلاح نفسك فترة ونكوب
سبحان ربك كيف يلتذ امرؤ ... بالعيش وهو بنفسه مطلوب

---

(١) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ . كرم البستاني ص ٤٣٣ .

مع النفس :

كثيراً ما يناجي أبو العتاهية نفسه ، زاجراً إياها تارة ، ومخوفاً أخرى ، وحاثاً على الطاعة والتبتل والإخبات ثالثة ، ومذكراً بالرقدة الكبرى وبالمصير المحتوم رابعة ، وملقياً عليها باللائمة خامسة ، وواعظاً وناصحاً سادسة .

فنراه يخاطبها خطاب من غلبته أهواؤه ، يشكو طمعها ورغبتها عن الطاعة فما هو إلا صبر أيام .

يقول (١) :

يا نفس مـا هو إلا صبر أيـام ... كأن لـذاتها أضـغاث أحـلام

يا نفس مـالي لا أنفك في طمـع ... طرفي إليه سريع طامح طـام

يا نفس كوني عن الدنيا مبعـدة ... وخلفيها فـإن الخيـر قـدامي

يا نفس ما الزخر إلا ما انتفعت به ... بالقبر يوم يكون الدفن إكرامـي

وفي معرض تسبيح الله وذكره ينهى نفسه عن التعرض للعطاء من الخلق ، فلا طلب إلا من الملك الذي بيده ملكوت كل شيء .

يقول (٢) :

سبحان من يعطي بغير حساب ... ملك الملوك ووراث الأسـباب

ومدبر الدنيا وجاعل ليلهـا ... سكنا ومنزل غيث كل سـحاب

يا نفس لا تتعرضي لعطيـة ... إلا عطيـة ربـك الوهـاب

يا نفس هلا تعلمين فإننـا ... في دار معتمـل لـدار ثـواب

ونراه – في موضع آخر – يثني على الله ويعظمه ، ويفخر بأنه عبد له سبحانه فله الملك هو الأول والآخر ، ولا ينسى في مقام الذكر والثناء ، أن يحث نفسه على الطاعة والاجتهاد ويُذكِّرها بدنو الأجل واقتراب موعد الحساب .

---

(١) السابق ص ٣٩١ .

(٢) الديوان ص ٥٤ .

يقول [١] :

تبارك من فخري بأني له عبد ... فسبحانه ، سبحانه وله الحمد
ولا ملك إلا ملكه عز وجهه ... هو القبل في سلطانه وهو البعد
فيا نفس خافي الله واجتهدي له ... فقد فاتت الأيام واقترب الوعد
فخير ممات قتلة في سبيله ... وخير المعاش الخوف منه أو الزهد
تشاغلت عما ليس لي منه حيلة ... ولابد مما ليس منه لنا بد

وبنبرة عالية ونفس غاضبة يخاطب نفسه خطاب من غلبته أهواؤه وأصبح في شغل شاغل عن الآخرة ، فيحثها على الطاعة والبذل والتوبة ، وتذكر الموت فهو الحق الذي لا منجى منه لمخلوق .

يقول [٢] :

يا نفس إن الحق ديني ... فتذللي ثم استكيني
فإلى متى أنا غافل ... يا نفس ويحك خبريني
وإلى متى أنا ممسك ... بخلا بما ملكت يميني
يا نفس لا تتضايقي ... وثقي بربك واستعيني
يا نفس أنت شحيحة ... والشح من ضعف اليقين
يا نفس توبي من مؤا ... خاة الأخ البطر البطين
وتعلقي بمعالق ال ... مكروب ذي القلب الحزين
وتفكري في الموت أحيـ ... ـاناً لعلك أن تليني
فلتغشيني غشية ... يندى لسكرتها جبيني
ولتعولن المعولا ... ت هناك حولي بالرنين
ولتجعلني بعد خلقي ... طينة لحقت بطيني

---

(١) الديوان ص ١٢٩ .

(٢) الديوان ص ٤٤٣ .

ويحث نفسه على الاستغفار والاستقامة قبل فوات الأوان ، وقبل أن تنقطع به أسباب الحياة ، فلا يستطيع أن يتوب أو يكتسب الحسنات يقول [١] :

حتى متى يا نفس تغتـــ ـــرين بالأمـــل الكـــذوب
يا نفس توبي قبـــل أن لا تســـتطيعي أن تتـــوبي
واستغفري لذنوبك الـر ـحمـــان غفـــار الـــذنوب

ويخاطبها – في موضع آخر – خطاب الواعظ الناصح ، المشفق علـى مـن يقدم له النصح ، فقد تجاذبته الأهواء والنوازع ، ويدخل معها في عتـاب قـاس ليحملها على الزهد والقناعة .

فيقول [٢] :

يا نفـس أنـى تؤفكينـا حتـى متـى لا ترعوينـا
حتـى متـى لا تفعليـ ـن وتسـمعين ، وتبصـرينا
أصبحت أطول مـن مضـى أمـلا وأضـعفهم يقينـاً
وليـأتين عليـك مـا أفنـي القـرون الأولينـا
يا نفـس طـال تمسكـي بعـري المنـى حينـا فحينـا
يـا نفـس إلا تصلحـي فتشـبهي بالصـالحينا
وتفكـري فيمـا أقـو ل لعـل قلبـك أن يلينـا
أيـن الأولـى جمعـوا وكـا نـوا ، للحـوادث آمنينـا
أفنـاهم الأجـل المطـ ـل على الخلائـق أجمعينـا
فـإذا مسـاكنهم ومـا جمعـوا لقـوم آخرينـا

ونلاحظ أنه جعل من نفسه إنسانا له قلب وجوارح يشعر ويحس ويتألم حتـى ترعوى وتؤوب إلى رشدها .

---

(١) الديوان ص ٥٦ .

(٢) السابق ص ٤٢٦ .

ونراه يصور الصراع الدائم والقائم بين القول والفعل ومغالبة الهوى إياه فيقول [١] :

أصبحت مغلوباً على عقلي ... لا يستوي قولي مع فعلي
عدل القيامة غير مختلف ... الموت أول ذلك العدل
يا غفلتي عما خلقت لَه ... أنى بمنقلبي لذو جهل
وليلحقني من أخلّفه ... ولألحقن بمن مضى قبلي

الدعاء :

ينتشر الدعاء في شعر أبي العتاهية الزهدي انتشارا واسعاً ، فهو دائم الضراعة إلى الله ، كثيراً ما يقف بين يديه داعياً خائفاً راجياً رضاه وعفوه ، ودعاء أبي العتاهية – في حقيقته – يدل على حسن تدين ، وصدق إيمان وسلامة طوية ، فهو لا يدعو بأمر دنيوي ، من جاه ومنصب ومال ، بل كل دعائه منصب على طلب السلامة والنجاة فى الآخرة .

فنراه يطلب من ربه الرحمة والزحزحة عن النار ، وأن يمنَّ عليه بالتوبة النصوح ، كما يسأله أن يمنَّ عليه بالتقوى ، والحلم والرضا بالقضاء والإقالة من العثرات والزلات .

اسمعه يقول [٢] :

لولا الإله وأن قلبي مؤمن لظننت ... والله غير مضيع إيماني
أو أيقنت عند منيتي ... أن المصير إلى محل هوان
فبنور وجهك يا إله مراحم ... زحزح إليك عن السعير مكاني
وامنن علىَّ بتوبة ترضى بها ... يا ذا الغنى والمن والإحسان

---

(١) الديوان ص ٣٣٣ .

(٢) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ.كرم البستاني ص ٤١٣ .

ويدعوه في موضع آخر أن يقيله العثرات فيقول [١] :

ألا يـا أيهـا الملـك المرجـي ... عليـه نـواهض الـدنيا تحـوم
أقلنـي زلـة لـم أجـر منهـا ... إلـى لـوم ومـا مثلـي ملـوم
وخلصني تخلـص يـوم بعـث ... إذا للنـاس بـرزت النجـوم

ويسأل الله تعالى الرضا بالقضاء فيقول [٢] :

نسأل الله بما يقضـي الرضـا ... حسـبي الله بمـا شـاء قضـى
قـد أردنـا فـأبي الله لنـا ... وأراد الله شـيئا فمضـي

وفي معرض الدعوة إلى تقوى الله يسأل مولاه أن يهبه الحلم والتقوى وأن يهبه عزماً عليها فيقول [٣] :

ألا إن تقـوي الله أكبـر نسـبة ... تسامى بها عند الفخـار كـريم
فيارب هب لي منك عزماً على التقى ... أقيم به ما عشـت حـين أقـيم
إذا ما اجتنبت الناس إلا على التقـى ... خرجت من الدنيا وأنـت سـليم
أراك امرأ ترجـو مـن الله عفـوه ... وأنت على مـالا يحـب مقـيم
تدل على التقـوى وأنـت مقصـر ... أيا من يداوى الناس وهو سـقيم

ولنقرأ معاً أبياته التي توسم بقوة العاطفة وصدقها في آن واحد وهو يستغفر مولاه مما جنته يداه ، ويسأله متبتلا مخبتاً أن يعفو عنه ويصفح ، فهو الخائف الوجل من عقابه وعذابه ، وهو شر الناس إن لم يعف عنه ويصفح ، فهو على كل حال بشر تأخذه الدنيا ويجن بزهرتها . يقول [٤] :

إلهـي لا تعـذبني فـإني ... مقـر بالـذي قـد كـان منـي

---

(١) السابق ص ٣٩٩ .
(٢) السابق ص ٢٤٠ .
(٣) السابق ص ٣٩٢ .
(٤) الديوان ص ٤٢٥ .

فمـــالي حيلـــة إلا رجـــائي ... لعفوك إن عفوت وحسن ظنـــي
فكم من زلة لي فـــي البرايـــا ... وأنـــت علـــيَّ ذو فضـــل ومـــنِّ
إذا فكرت في نـــدمي عليهـــا ... عضضت أناملي وقرعت ســـني
يظن الناس بي خيراً وإنـــي ... لشر الناس إن لم تعـــف عنـــي
أجن بزهـــرة الـــدنيا جنونـــا ... وأقضي العمـــر فيهـــا بـــالتمني
وبين يـــدي محتـــبس ثقيـــل ... كأني قـــد دعيـــت لـــه كـــأني
ولو أني صدقت الزهد فيهـــا ... قلبـــت لأهلهـــا ظهـــر المجـــن

ويطلب من ربه العون على الطاعة فهو على كل حال ضـــعيف لا يســـتطيع تقديره حق قدره يقول [١] :

يـــارب أنـــت خلقتنـــي ... وخلقـــت لـــي وخلقـــت منـــي
ســـبحانك اللهـــم عـــا ... لـــم كـــل غيـــب مســـتكن
مـــالي بشـــكرك طاقـــة ... يـــا ســـيدي إن لـــم تعنـــي

وفي أسلوب حواري جميل يظهر ندمه وتحسره على ما جنتـــه يـــداه مـــن المعاصي ، التي طالما أخفاها عن خلق الله ولم يستح أن يعصيه سبحانه فمـــاذا يقول لربه إذا وقف بين يديه ؟

يقول [٢] :

بكـــت عينـــي علـــى ذنبـــي ... ومـــا لاقيـــت مـــن كربـــي
فيـــا ذلـــي ويـــا خجلـــي ... إذا مـــا قـــال لـــي ربـــي
أمـــا اســـتحييت تعصـــيني ... ولا تخشـــي مـــن العتـــب
وتخفي الـــذنب مـــن خلقـــي ... وتـــأبي فـــي الهـــوى قربـــى
فتـــب ممـــا جنيـــت عســـى ... تعـــود إلـــى رضـــي الـــرب

---

(١) الديوان ص ٤٣٤ .

(٢) الديوان ص ٣٩ .

محمد ﷺ في ديوان أبي العتاهية

من العجيب والمدهش بل والمريب حقاً أن لا أعثر – في ديوان كبير تزيد صفحاته على الخمسمائة صفحة ، لشاعر مرهف الحس رقيق المشاعر ، صادق العقيدة – على بيت يذكر فيه حامل رسالة الإسلام ، ومبلغ دعوة التوحيد محمد صلى الله عليه وسلم فمع هذه السعة والرحابة في ابتهالاته وتسبيحاته وأدعيته واستغفاراته ، ومن ذكر الموت ونهى عن الركون إلى دار الفوت ، لا نجد مساساً لصاحب الخلق العظيم من قريب أو بعيد ، فقد أخذني الشك في عقيدة الرجل ، وأخذت عليه هذا الإغفال وهذا الترك ، إلى أن قرأت في كتاب تاريخ الأدب العربي " الأعصر العباسية " لـ أ. عمر فروخ ما خفف ما بي من حنق على الشاعر والتمست له العذر ، فقد نص أ.عمر فروخ [1] : على أن الدكتور شكري فيصل عند تحقيقه لديوان أبي العتاهية ، لاحظ أن هناك تلاعباً بيّنا من الآباء اليسوعيين بشعر أبي العتاهية .

يقول : " ولقد عني د. شكري فيصل بديوان أبي العتاهية ، واعتمد في ذلك على نسختين له هما نسخة المكتبة الظاهرية في دمشق ، ونسخة وجدها في توينجين " ألمانيا " .

وبمقارنة طبعة اليسوعيين بهاتين المخطوطتين تبين للدكتور شكري فيصل أن طبعة الآباء اليسوعيين عنيت بالزهد خاصة وتهاونت بأبيات ومقاطع من سائر الفنون ، ولقد استطاع الدكتور شكري فيصل أن يجمع في الديوان الذي استخرجه شعر أبي العتاهية .

اتضح للدكتور شكري فيصل أن الآباء اليسوعيين قد تلاعبوا بشعر أبي العتاهية تلاعباً يتبدى في الأوجه التالية : كانت بعض الكلمات في الديوان محرفة

---

(١) تاريخ الأدب العربي – الاعصر العباسية – الأولى ١٩٦٨ م – دار العلم للملايين – بيروت – عند ترجمته لأبي العتاهية .

وهذا التحريف يمكن أن يكون نتيجة للجهل ، أو أن يكون مقصودا ، ويبدو أن الآباء اليسوعيين قد بدلوا عدداً من الكلمات ، مثل الحب فقد جعلوها الود ، كما وضعوا كلمة النوى مكان كلمة الهوى ، وكلمة نديم مكان كلمة جارية ، وكذلك حذف الآباء اليسوعيين من ديوان أبي العتاهية الألفاظ الإسلامية ككلمة " محمد " وجملة " لا شريك له " وما ماثل ذلك ، وكانوا يحاولون أن يشوهوا الأبيات التي فيها مدارك إسلامية بتحريفها فإذا لم يتأت لهم تحريف البيت حتى يغيب منه المدرك الإسلامي حذفوا البيت جملة واحدة .

وعند قراءتي لديوان أبي العتاهية طبعة بيروت ، تحقيق أ . كرم البستاني ، وكذلك ديوانه طبعة المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ببيروت والمسمى بالأنوار الزاهية تحقق لي ما قاله د. شكري فيصل وما أشار إليه أ . عمر فروخ فلم أعثر على مقطوعة تشير إلى الرسول صلي الله عليه وسلم ومكانته العظيمة أو حتى على بيت ، وكذلك لم أعثر على بيت يحتوى على جملة " لا شريك له "

ولقد عثرت على مقطوعة في كتاب أسطورة الزهد عند أبي العتاهية د . محمد عبد العزيز الكفرواي نقلاً عن ديوان أبي العتاهية جمع د. شكري فيصل يقول فيها أبو العتاهية [1] :

طغى الناس من بعد النبي محمد ... فقد درست بعد النبي الشرائع
وصارت بطون المرملات خميصة ... وأيتامها منهم طريد وجائع
وأن بطون المكثرات كأنما ... ينقنق في أجوافهن الضفادع
فما يعرف العطشان من طال ريه ... وما يعرف الشبعان من هو جائع

وبالرجوع إلى القصيدة في ديوان أبي العتاهية تحقيق كرم البستاني ، والأنوار الزاهية طبعة الآباء اليسوعيين وجدت القصيدة بعينها بيد أنه قد حذف البيت

---

(١) أسطورة الزهد عند أبي العتاهية د. محمد عبد العزيز الكفروای نهضة مصر ص ٩٣ نقلا عن ديوان أبي العتاهية جمع د. شكري فيصل ص ٢١٧ .

الأول منها ، والذي فيه ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وشريعته السمحة ، وأن تعاليم الإسلام درست وأصبحت لا يعمل بها كما ينبغي بعد النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا يؤكد ما قاله د. شكري فيصل وما أشار إليه أ. عمر فروخ من تلاعب اليسوعيين بشعر أبي العتاهية .

وقبل أن أنهى الحديث عن هذه القضية أود أن أردفه بما حصلت عليه من الشبكة العالمية للمعلومات (الانترنت) على موقع " المنهج " تحت عنوان" الأب لويس شيخو يحرف شعر أبي العتاهية " ، وكذلك موقع " باب " تحت نفس العنوان ، وقد نص المقال على أنه مأخوذ من مقدمة كتاب " أبو العتاهية أشعاره وأخباره " د. شكري فيصل – مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٥ م ، وقد اجتهدت في العثور على هذا الكتاب ولكن لم أوفق في ذلك ، فاعتمدت في بحثي على ديوان أبي العتاهية نشر أ. كرم البستاني – بيروت مع مقارنة كثير من الأبيات الواردة في الديوان بالأنوار الزاهية نشر لويس شيخو طبعة الآباء اليسوعيين . وصوبت كثيراً من الأبيات من خلال هذا المقال الوارد على " الانترنت " وتخيرت من المقال ما نص عليه د/ فيصل من حذف أو تحريف يخص جملة " لا شريك له " وإفراده سبحانه وتعالى بالعبودية ، وتنزيهه سبحانه عن الند والنظير والشريك والوالد والولد .وكذلك ما يخص رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي خير أمة أخرجت للناس .

وهاهو بعض ما جاء بالمقال حول تحريف الآباء اليسوعيين لشعر أبي العتاهية . فمن الأبيات التي دخلها التحريف في أكثر البيت :

قول أبي العتاهية :

وإذا ذكرت محمداً ومصابه　　فأذكر مصابك بالنبي محمد

يحرفها شيخو إلى :

وإذا ذكرت العابدين وذلهم فاجعل ملاذك بالإله الأوحد [١]

وقول أبي العتاهية :

بنبي فتح الله به كل خير نلتموه وشرح

حرفه شيخو إلى :

بخطيب فتح الله به كل خير نلتموه وشرح [٢]

وقول أبي العتاهية في البيت الذي يليه :

مرسل لو يوزن الناس به في التقي والبر طاشوا ورجح

حرف كلمة " مرسل " في الشطر الأول إلى كلمة " ابن من " [٣] .

وفي بيت أبي العتاهية التالي لهذين البيتين :

فرسول الله أولى بالعلى ورسول الله أولى بالمدح

حرف جملة " فرسول الله " إلى جملة " فنذير الخير " في كلا الشطرين [٤] .

ومن الأبيات التي حذفها الأب لويس قول أبي العتاهية :

وهو الذي بعث النبي محمد صلى الإله على النبي المصطفى

وكذلك قوله :

أين أين النبي صلى عليه الله من مهتد رشيد وهاد

يقول د/ شكري فيصل أيضاً :

" وكان يستبعد التعبير الإسلامي " لا شريك له " في كل مكان يرد فيه ، ويضع مكانه تعبيراً آخر " لا مثيل له " أو " لا شبيه له " كما في قول أبي العتاهية :

---

(١) الأنوار الزاهية ص ٧٥ .

(٢) الأنوار الزاهية ص ٧٥ .

(٣) السابق ص ٦٨ .

(٤) السابق نفس الصفحة .

الحمد لله شكراً لا شريك له كم من حبيب من الاهلين مختلس

حرفها شيخو إلى :

الحمد لله شكراً لا مثيل له [١] .

وقول أبي العتاهية :

فحسبي الله ربي لا شريك له وضعت فيه كلا بسطي ومنقبضي

حرفها شيخو إلى :

فحسبي الله ربي لا شبيه له وضعت فيه كل بسطي ومنقبضي [٢]

وقول أبي العتاهية :

شهدنا لك اللهم أن لست والداً ولكنك المولى ولست بمولود

حرف شيخو جملة " أن لست والداً " إلى " أن لست محدثاً " .

وقول أبي العتاهية :

الحمد لله الواحد الصمد هو الذي لم يولد ولم يلد

حرفها إلى :

الحمد لله الواحد الصمد فهو الذي به رجائي وسندي [٣]

وعندما لا يستطيع شيخو التحريف في البيت كان يحذفه كلياً كما في قول أبي العتاهية :

الحمد لله لا شريك له حاشا له أن يكون مشتركا

ولعل البيت موضعه الخامس عشر من ص ١٨١ من الأنوار الزاهية .

وهذا نص المقال كما جاء على الشبكة العالمية للمعلومات يخص هذا البحث .

---

(١) الأنوار الزاهية ص ١٣٣ .

(٢) السابق ص ١٣٩ .

(٣) الأنوار الزاهية ص ٧٨ .

superviso
حارس العام
تاريخ التسجيل: Jun 2003
مشاركات: ٣٣٩

الأب لويس شيخو اليسوعي يحرف شعر أبي العتاهية (منقول)

الأب لويس شيخو اليسوعي يحرف شعر أبي العتاهية

للدكتور : شكري فيصل

كان بين أيدينا نصوص أبي العتاهية كما طبعت في بيروت في المطبعة اليسوعية، وكانت الطبعة الأولى ١٨٨٦م ثم تكررت بعد ذلك مرات، أغلب الظن أنها أربع، من غير كبير اختلاف.. ولكنها لم تكن تحمل مقدمة يطمئن القارئ إلى مصادرها التي صدرت عنها وإلى كل مواردها التي أخذت منها وإلى تحديد هذه المصادر في كل قصيدة أو مقطوعة.. لم نكن نملك بين أيدينا في الواقع ديوان أبي العتاهية كما صنعه الأقدمون، وإنما كان بين أيدينا، على نحو ما يقجوزنا في الحواشي وتراجم صنعه أحد الآباء اليسوعيين، وسماه «الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية».

وما من عجب في أن يصنع معاصر ديوان شاعر قديم، يجمعه ويخرجه ويعرضه للناس على الصورة التي يوحي بتمامها إلى عرضه.. فذلك ما يجب أن نفعله في شعر الشعراء الذين غيب الزمان دواوينهم وشعرهم.. ولكن العجيب ألا يكون في هذا الصنع تحديد واضح للخطة التي اتبعها، والنهج الذي أخذ نفسه به، وحديث موثوق عن المصادر التي استمد منها، وعزو للروايات التي أخذ بها أو أشار إليها.

بل إن ما هو أعجب منه أن يكون هنالك طمسٌ لهذه المصادر وسكوت مقصود عنها أو إشارات خرس إليها إلا هذا السطر «الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية، نقلا عن رواية النمري وكتب مشاهير الأدباء كالأصفهاني والمبرد، وابن عبد ربه والمسعودي والماوردي والغزالي» في صفحة العنوان.. أما كل ما جاء بعد ذلك في الديوان فهو إلى التعمية أقرب، على مثل ما سيلقاك من وصف النسخة في الصفحات التالية.

مهما يكن من شيء، فالمؤكد أني لم أستطع وأنا أدرس أبا العتاهية أن أطمئن إلى هذا الديوان أقيم الدراسة عليه كل الاطمئنان من أن أتلفت يمنة ويسرة أسأل عن أصول موثوقة.

وقرأت للشيخ أحمد محمد شاكر في الشعر والشعراء تعليقه على ترجمة أبي العتاهية قال فيها: «وديوانه طبعه الآباء اليسوعيون بمطبعتهم في بيروت، وهم قوم لا يوثق بتنقلهم لتلاعبهم وتعصبهم وتحريفهم، وأنّى هذا الذي ترجمه بأيدي الناس». فكانت هذه المقالة منارا جديدا لي.. كيف يكون التلاعب والتعصب في نشر ديوان شعري فتريم؟ التعصب إلى هذا الشعر الذي يتحدث عن الحياة والموت والآخرة؟.. وكيف يكون الأمر على هذا النحو الذي الناس ولا يكون في الناس خلال ثمانين سنة من يملك أن يضع بين أيديهم بعضا من تراثهم على خير ما يرتضع لهم تحريفا متلاعبا فيه ؟

يتلخص عمل الأب لويس شيخو في الأنوار الزاهية بالخطوط التالية:

١ - الركيزة الأولى في عمله هي الديوان الذي صنعه ابن عبدالبر، وأغلب الظن أنه اطلع على نسخة الظاهرية ومنها أخذ وانظر دليلا على ذلك ما جاء في هامش الصفحة ٢٣٥ من ذكر أحد الأسناد.

٢ - عرض الأمهات كالأغاني والعقد والأمالي ونظر في بعض المخطوطات وأفاد منها.

٣ - تجاوز الزهديات إلى الأغراض الأخرى فجعلها في قسم آخر سماه «منثورات شتى» وطواه على سبعة أبواب المديح والنهاني، حسن التوصل والطلب والتشكي والتشكر، العتاب والهجو، الرثاء والتعازي، الأوصاف والهدايا والإجازات الشعرية والحكم.

٤ - ألحق بعمله في خاتمته فهرسا لغويا فسر فيه ما رأى أنه غريب أو صعب من شعر أبي العتاهية.

٥ - أخرج الديوان مشكولا شكلا كاملا، وسمى أبحر الأبيات، ووضع لكل قطعة عنوانا، رآه تعبيرا عنها

ولكن عمله بعد ذلك جاء يحمل السمات التالية:

١ - طمس معالم عمل ابن عبدالبر حين سكت عنه وأغفل التعريف به ولم يشر إلى مدى ما أفاد منه.

٢ - سكت عن وصل الروايات والمقابلات بمصادرها مكتفيا بهذه القالات الصماء: روي له، ويروى، ومن رواية ومن مخطوطة من باريس..

٣ - لم يستوف كل شعر أبي العتاهية في غير الزهديات. والحق أنه ما كان له أن يبلغ ذلك آنذاك، لأن كثرة من ذخائر التراث العربي ومخطوطاته إنما نشرت أو عرفت بعد ذلك.

٤ - طوى شعر الغزلي والخمري مهملا له؛ وحرّف بعضه تحريفا، حذف القطعة خير منه، لأنه يجعل الحب مرداً والهوى نوى، والجارية نديما - في تقديم البيت - والوجه رأيا في مثل البيت التالي «ق٢٧٩ ص٦٦٣»:

عزة الحب أرته ذلتي
في هواه وله وجه حسن

فيصيره إلى

عزة الود أرته ذلتي
في نواه وله رأي حسن

٥ - في شكل الزهديات أخطاء قد يكون بعضها مما يقع مثله، ولكن الشكل في غير الزهديات كثير. وفي تسمية بعضها الأبحر وبخاصة مخلع البسيط الذي عده من المنسرح، وهمّ وفي بعضها سكوت عن الإشارة إلى أنه مجزوء. وغناء وسيه القطع أو تتساوق دائما مع مضمونها.

٦ - ولكن أعظم من ذلك إنما كان في هذه التحريفات التي تعمدها؛ وهي تتنوع فتتناول الكلمة حينا والجملة حيناً والشطر أو البيت مرة والأبيات ذوات العدد في بعض الأحايين.

أ - التحريف في الكلمة الواحدة

١ - يتناول مثل هذا التحريف ضبط الكلمة المعروف المشهور والمتداول، فلفظ «زلزلت» في الآية الكريمة «إذا زلزلت الأرض زلزالها» من الألفاظ القرآنية الشائعة ولكن ناشر الديوان يضبطها: زلزلت.

٢ - يتناول التحريف بناء اللفظة أحيانا. فكلمة «أوّاب» مثلا، وهي كلمة قرآنية معروفة، يحرفها الأب شيخو إلى أرّاب في البيت الثاني «ق١٦٨ ص١٦٦»:

طوبى لكل مراقب
ولكل أرّاب شكور

٣ - ويتناول أحيانا تغيير الكلمة كلها، نسخها بغيرها مما يرتضيه. فكلمة «نشور» وهي كذلك كلمة قرآنية يحرفها الأب شيخو إلى «نزول» كما في البيت ١١ «ق٢٢ ص٣٠»:

أسقام ثم موت نازل
ثم قبر ونشور وجلبْ

وطبيعي أنه لا يمكن أن يكون هنالك رواية ما للبيت على هذا اللفظ؛ ولكنها الرغبة في التحريف. أما اللفظ القرآني «علام وشهيد» فيتحول في البيت «ق١٢٥ ص١٢٣» إلى سابق وشهيد. كذلك تزول لفظة «حور هن» إلى «حورهن» في البيت «ق٥٢ ص٤٩»:

إن العقول عن الجنا
ن وحورهن لساهية

٤ - وأبعد من هذا أن الأب شيخو كان لا يطيق فيما يبدو أن يرى لفظة «محمد» الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في شعر أبي العتاهية، ولذلك فإنه يحرّف هذه اللفظة، ما صادفها، التحريف الذي يشمل أكثر البيت حتى لا ينتقض الوزن حين ينقل البيت «ق١١ ص١١»:

وإذا ذكرت محمدا ومصابه
فاذكر مصابك بالنبي محمد

إلى:

وإذا ذكرت العابدين وتلهم
فاجعل ملاذك بالإله الأوحد

ويحوّر البيت «ق١٠٠ ص١٠٠»: بنبي فتح الله به.. إلى: بخطيب فتح الله به. وينقل لفظة «مرسل» إلى لفظة ابتهاج في البيت الذي يليه:

مرسل لو يوزن الناس به
في التقى والبر شالوا ورجح
فإن لم يجد التحريف السبيل حذف البيت كله كما فعل في البيت ٢٨ «ق١٢ص١٥»
وهو الذي بعث النبي محمدصلى الإله على النبي المصطفى

ب - التحريف في التراكيب

ويتجاوز التحريف الكلمة الواحدة إلى التعبير الكامل. ومن أمثلة ذلك أن الأب شيخو كان يستبعد التعبير الإسلامي لا يشرك له، في كل مكان يرد فيه، ويضع مكانه تعبيرا آخر: لا مثيل له أو لا شبيه له، كما يبدو في الشطر «ب ٩ من ١٩٩ ص ١٩٤ الحمد لله شكرا لا شريك له، وفي الشطر «ب٢ق٢١٣ص٢٠٣» فحسبي الله ربي لا شريك له.

وتعبير: رسول الله، يصير إلى: فتذير الخير في البيت «ق١٠٠ص١٠٠»:
فرسول الله أولى بالعلى
ورسول الله أولى بالمدح

وتعبير «لست والدا» يزول إلى «لست محدثا» في البيت الثاني «ق١٠٤ص١٠٤»:
شيدنا لك اللهم أن لست والدا
ولكنك المولى ولست بمولود

والشطر «هو الذي لم يولد ولم يلد» في «ق١١٩» يزول على حساب المعنى والوزن إلى: «فهو الذي به رجائي وسندي» فإذا رجد أن مثل هذا التحريف لا ينقع غلته اسقط البيت كله كما فعل بالبيت التالي «ق٢٧٣ص٢٦١»:
الحمد لله لا شريك له
حاشا له أن يكون مشتركا

جـ - حذف البيت:

قلت إنه يحذف البيت كله، وقدمت على ذلك بعض الأمثلة وهي كثيرة منها مثلا هذا البيت «ق١١٤ص١١٩
أين أين النبي صلى عليه الله
من مهند رشيد وهاد

د - طي الأبيات ذوات العدد

ويمضي التحريف وكأنما ليست هنالك حرمة للنصوص ولا رعاية للصدق ولا اعتبار لأية واحدة من هذه القيم التي لو كرم العالم عالما إلا بها، فإذا ناشر الديوان يطوي أبياتا برمتها كهذه الأبيات الخمسة «ق١١٦ص١١٦» في مديح الرسول. ولست لأستقصي في هذه المقدمة أمثلة التحريف كلها ولكني لأعرف بها وأدل على بعض منها. إن وراءها أمثلة أخرى يستطيع القارئ المتتبع أن يقع عليها حين ينظر في الحواشي (١)، وأن ينتهي - مهما يكن لونه - إلى أن مثل هذه التحريفات تتجاوز كل حدود التعصب والتلاعب التي أشار إليها الشيخ شاكر في قالته التي مرت بنا، وأن هذه التحريفات تتناول كل ما يتصل بألفاظ القرآن وتعابيره، وكل ما يتصل بالنبي صلوات الله عليه ورسالته، وكل ما يتصل بمفاهيم الإسلام من الوحدانية والنشور والآخرة.

---

* هذا المقال مأخوذ عن مقدمة كتاب «أبو العتاهية: أشعاره وأخباره» للدكتور شكري فيصل - مطبعة جامعة دمشق ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥م، ص٥، ٦، ١٠-١٣.

(١) انظر مثلا: ق١٢ص١٥ب٢٨ - ق٢٧ص١ب١ - ق٧٦ص٧٧ب٨ - ق١٢٩ص١٢٦ب٩ و ٩م١٥٧ ص١٥٤ ب٦ نشر في مجلة (الأدب الإسلامي) عدد(١٥) بتاريخ (١٤١٨هـ)

AM ١:٣٩ ٢
sup

الشكوى :

وكثيراً ما يشكو أبو العتاهية إلى الله ظلم الناس ويصور أنانيتهم وحبهم الشديد للذات ، فهم لا يأبهون بضيق نفسه ، فإذا نزلت به ضائقة فكهوا بها وسروا ، وإذا أصاب مالاً طمعوا فيه .

يقول [١] :

لقد طال يا دنيا إليك ركوني ... وطال لزومي ضلتي وفنوني
وطال إخائي فيك قوما أراهم ... وكلهم مستأثر بك دوني
وكلهم عني قليل غناؤه ... إذا غلقت في الهالكين رهوني
فيارب إن الناس لا ينصفونني ... وإن أنا لم أنصفهم ظلموني
وإن كان لي شيء تصدوا لأخذه ... وإن جئت أبغي شيئهم منعوني
وإن نالهم رفدي فلا شكر عندهم ... وإن أنا لم أبذل لهم شتموني
وإن وجدوا عندي رخاء تقربوا ... وإن نزلت بي شدة خذلوني
إن طرقتني نكبة فكهوا بها ... وإن صحبتني نعمة حسدوني
سأمنع قلبي أن يحن إليهم ... وأحجب عنهم ناظري وجفوني
وأقطع أيامي بيوم سهولة ... أزجى به عمري ويوم حزونى [٢]
ألا إن أصفى العيش ما طاب غبه ... وما نلته في عفة وسكون

ويشكو إلى الله ما ناله من مضرة فهو وحده كاشف الضر . يقول [٣] :

إلى الله فيما نالنا نرفع الشكوى ... ففي يده كشف المضرة والبلوى
خرجنا من الدنيا ونحن من اهلها ... فلا نحن في الأموات فيها ولا الأحياء

---

(١) الديوان ص ٤١٥ .

(٢) الحزون : الأرض الغليظة المرتفعة

(٣) الديوان ص ٢٩ .

العظة والنصيحة :

تعد العظة والنصيحة من أهم معاني زهد أبي العتاهية ، فقد أكثر منها وألـح في تقديمها لبني جنسه ، وتدور هذه النصائح في جو إسـلامي خـالص ، فهـو يستمد معانيها من معين القرآن الكريم والسـنة النبويـة ، و القصـص الـديني الوعظي ، ثم من مجالسته الخاصة والعامة وما استقاه من خبرة كثيرة بالحيـاة والأحياء طيلة حياته ، فقد تقلب الشاعر بين القصور والسجون ، بين الحياة مـع الأشقياء المختشين وبين الخلفاء المترفين ، فانطبعت في ذهنه العديد من الحقـائق الهامة عن الدنيا وأهلها والآخرة وأهوالها .

ويرمي أبو العتاهية من هذه العظات إلى تحقيق هدف واحد طالما دعا إليه هو السعي نحو الآخرة بعقل راجح ، وفهم صحيح وعمل صالح وما يستلزم ذلك من عدم الجري وراء الدنيا . وألا يجعلها الإنسان شغله الشاغل .

ويقف الشاعر من بني جنسه موقف الواعظ الديني ، يخاطبهم تارة ويعـنفهم أخرى ، يترفق بهم حيناً ويقسو عليهم أحياناً ، يعدهم ويتوعدهم ، يقترب مـنهم ويبتعد عنهم ، يرغبهم ويرهبهم ، وهو دائما يبغي لهم السلامة والسـعادة فـي الآخرة .

فنراه يدعو إلى الرحمة بخلق الله والرفق بهم ، وتجنب ظلمهم ، فـالراحمون يرحمهم الرحمن ، وإلى تقوى الله فتقوى الله هي الغنم الأكبر كما يقول [١] :

الخير أفضل ما لزمتا	والشـر أخبـث مـا طعمتـا
إن الالى طلبوا التقـى	يتيقظـون وأنـت نمتـا
وإذا نقمت على امرئ	خلقنـا فجانـب مـا نقمنـا
وارحم لربك خلقـه	فليرحمنـك مـا رحمتـا
لا تظلمن تكن من الـ	أبـرار واعطـف إن ظلمتـا

---

(١) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ . كرم البستاني ص ٨١ .

وإذا اتقيت الله فـــــي كـــل الأمـــور فقـــد غنمتـــا

وفي معرض نصحه يدعو إلى اجتناب الملاهي والانصراف عـن مجـالس الغناء والطرب .

يقول [١] :

تخفف من الدنيا لعلك أن تنجو ففي البر والتقوى لك المسك النهج

رأيت خراب الدار يحليه لهوها إذا اجتمع المزمار والطبل والصنج

ويحث الإنسان الذي عكف على المعاصي على الخشية من الله ، والخوف من غضبه والطرد من رحمته سبحانه ، إذ كيف يعصي الله وهو يراه ليلاً ونهاراً ، خفية وجهاراً ، ويؤكد أن هذا العاصي واقف لا محالة بين يدي مولاه .

يقول [٢] :

فيا من بـــات ينمـــو بالخطايـــا وعـــين الله ســـاهرة تـــراه

أما تخشي مـــن الـــديان طـــردا بجـــرم دائمـــا أبـــداً تـــراه

أتعصي الله وهو يـــراك جهـــراً وتنســـى فـــي غـــدٍ حقـــاً تـــراه

وتخلـــو بالمعاصـــى وهـــو دان إليك وليس تخشـــى مـــن لقـــاه

وتنكر فعلها ، ولهـــا شهـــود بمكتـــوب عليـــك وقـــد حـــواه

فيا حزن المسيء لشـــؤم ذنـــب وبعـــد الحـــزن يكفيـــه حمـــاه

فيندب حسرة مـــن بعـــد مـــوت ويبكي حيـــث لا يجـــدي بكـــاه

يعض اليد من نـــدم وحـــزن ويندب حســـرة مـــا قـــد عـــراه

فبادر بالصلاح وأنـــت حـــي لعلـــك أن تنـــال بـــه رضـــاه

ويرسم الطريق الصحيح لمن يريد اتباعه بسرد صفات المؤمن الرشيد الذي لزم طريق الهداية طريق الصلاح والفلاح فيقول [٣] :

---

(١) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ .كرم البستاني ص ١١٢

(٢) السابق ص ٤٧٦ .

(٣) ديوان أبي العتاهية كرم البستاني بيروت ص ١٣٧ .

إن القريرة عينـــه عبـــد ... خشى الإلـــه وعيشـــة قصـــد
عبد قليل النوم مجتهـــد ... لله كـــــل مقالـــــه رشـــــد
نزه عن الدنيا وباطلـــها ... لا عـــرض يشـــغله ولا نقـــد
مستجهل في الله محتقر ... هـــزل المخافـــة عنـــده جـــد
متذلل في الله مرتقـــب ... مـــا لـــيس فـــي إتيانـــه بـــد

فهو عبد ملء قلبه خشية ، مترفع عن الدنيا ونعيمها الزائـــل ، ليلـــه قيـــام ، متعفف متزهد ، مراقب لمولاه .

ويدعو إلى حسن التوكل على الله ، والرضا بما قسمه للإنسان لأن قدر الله لا محالة نافذ ، فيجب على الإنسان أن يطيب نفسا بما قضى الله وقدر .

يقول [١] :

لعمـــر أبي لو أنني أتفكـــــــر ... رضيت بما يقضي عليَّ ويقدر
توكل على الرحمن في كل حاجة ... أردت فإن الله يقضـــي ويقـــدر
متى ما يرد ذو العرش أمراً بعبده ... يصبه ، وما للعبد مـــا يتخيـــر
وقد يهلك الإنسان من وجه أمنه ... وينجو بإذن الله من حيث يحذر

ويدعو في موضع آخر إلى القناعة والرضا ، فعلى الإنسان أن يملـــك زمـــام نفسه ، ولا يندفع وراء شهواته ، فقد يأتي حتف الإنسان من حيث مأمنه .

يقول [٢] :

من عاش عاين ما يسو ... ء مـــن الأمـــور ومـــا يســـر
ولرب حتف فوقـــــــه ... ذهـــــــب ويـــــــاقوت ودر
فاقنع بعيشك يا فتـــى ... واملـــك هـــواك وأنـــت حـــر

ويقول في موضع آخر [٣] :

---

(١) الديوان ص ١٧٧ .

(٢) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ . كرم البستاني ص ١٣٧ .

(٣) السابق ص ٣٦٩ .

يا من يموت غداً ماذا اعتددت لكر ... ب الموت يوم غواشيه وأهوالـه
يموت ذو البر والتقوى فتغبطه و ... لا تنافسه فـي بعـض أعمالـه
استغن بالله عمـن كنـت تسـأله ... فالله أفضـل مسـؤول لسـؤاله

وبشيء من القسوة والعنف ، يزجر الإنسان لغيه وتخبطه ، ويذكره بأن سهام الموت نافذة لا محالة ، فالموت لا منجى منه لمخلوق ، وعليـه إذن ألا يكـون كحاطب ليل يخلط الغث بالثمين ، والحلال بالحرام ، والعمل الصالح بالسـيئ ، وعليه أن يتزود بالتقوى مادام يطلب الحسنى ، إذ لا معنى أن يتمنـى الإنسـان على الله الأماني ولا يعمل لها ، ويضرب له المثل الحي المحسـوس الـذي لا ينكره عاقل السفينة التي لا تجري على اليابس " .

يقول [1] :

لا تأمن الموت في طرف ولا نفـس ... وإن تمنعـت بالحجـاب والحـرس
فما تـزال سـهام المـوت نافـذة ... في جنب مـدرع ، منهـا ومتـرس
أراك لسـت بواقـف ولا حـذر ... الحاطب الخابط الأعواد في الغلـس
ترجو النجاة ولـم تسـلك مسـالكها ... إن السفينة لا تجرى علـى اليـبس
أنى لك الصحو من سكر وأنت متى ... يصح من سكرة يغشاك فـي نكـس
ما بال دينك ترضـى أن تدنسـه ال ... دنيا وثوبك مغسـول مـن الـدنس

وتثور ثائرة الشاعر ، ويصل وعظه من الحدة إلى حـد الشـتم والتـوبيخ القاسي ، ويتعجب ممن لا تجدي معه نصيحة ويشبهه بالجمـاد ويـذكره بيـوم الحساب يوم ينادي المنادي من مكان قريب ، ويردف ذلك بأسلوب غايـة فـي التلطف واللين دأب المعلم مع تلاميذه وأتمثل فيه قول الشاعر :

قسا ليزدجروا ومن يك حازماً ... قد يقسوا أحياناً على من يرحم

---

(١) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ . كرم البستاني ص ٢٣٠ .

فيقول [١] :

فمالك ليس يعمل فيك وعظ ... ولا زجر كأنك من جماد
ستندم إن رحلت بغير زاد ... وتشقى إذ يناديك المنادي
أترضى أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد وأنت بغير زاد

ونلمس من خلال هذه الأبيات صدق مشاعر أبي العتاهية وإخلاصه في العظة ، كما نشعر بثقل الحمل الذي ألقاه على عاتقه وأبى إلا أن يمضي به إلى النهاية .

ويوضح أن إحراز الدين هو الغنم الأكبر ، وخير ما يسعى إليه الإنسان ، مبيناً أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها وهو أرحم بعباده من أنفسهم .

يقول [٢] :

يا أيها المرء المضيع دينه ... إحراز دينك خير شيء تصطنع
والله أرحم بالفتى من نفسه ... فاعمل فما كلفت ما لم تستطع
والحق أفضل ما قصدت سبيله ... والله أكرم ما تزور وتنتجع

ويلح في النصيحة بتقوى الله والعمل لما يرضاه ، والتمسك بعرى الدين فبالتقوى يرتفع الإنسان ويعظم عند الله وإن كان فقيراً معدماً ، ويسوق العبرة بين يدي العظة مبيناً أن الإنسان عليه أن يأخذ العبرة من نفسه فهذا الشيب الذي يعلو الرأس نذير الموت .

يقول [٣] :

رأيت الشيب يعروكا ... بأن الموت ينحوكا
فخذ حذرك يا هذا ... فإني لست ألوكا
ولا تزدد من الدنيا ... فتزدادن بها نوكا

---

(١) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ . كرم البستاني ص ١٣٨ .
(٢) السابق ص ٢٥٣ .
(٣) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني ص ٣٠٤ .

فتقوى الله تغنيك وإن سميت صعلوكا

ويدعو إلى التمسك بمجموعة من القيم الدينية الهامة التي بها قوام الفرد والجماعة .

من هذه القيم الرحمة والرأفة وابتغاء الخير لجميع الناس فهم على أية حال أبناء جنس واحد .

يقول [١] :

إنما أنت بحسّك ومن الناس بأنسك
لا يفوتك بيومك ما فات منك بأمسك
ارحم الناس جميعا فهم أبناء جنسك
ابغ للناس من الخير ر كما تبغي لنفسك

والتأثر بالحديث ظاهر بيِّن في البيت الأخير ، وهو تلخيص للحديث النبوي الشريف " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه " [٢] .

كما ينصح المرء بمجاهدة النفس ومغالبة الهوى ، والتصبر عن الدنيا والجري وراء زخرفها الزائل ، كما يدعو إلى حساب النفس فيقول [٣] :

تصبر عن الدنيا ، ودع كل تائه مطيع هوى ، يهوي به في المهامه
دع الناس والدنيا فبين مكالب عليها بأنياب وبين مشافه
ومن لم يحاسب نفسه في أموره يقع في عظيم مشكل متشابه
فما فاز أهل الفضل إلا بصبرهم عن الشهوات واحتمال المكاره

ونراه في موضع آخر ينصحه أن يحافظ على منطقه ويحفظ عليه لسانه وأن

---

(١) السابق ص ٣١٠ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري عن أنس كتاب الإيمان – انظر مختصر صحيح البخاري للإمام الزبيدي – دار النفائس بيروت ١٩٩٢ م ج١ ص ٢٧ .

(٣) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ . كرم البستاني ص ٤٦٣ .

يصل إخوانه وذوي قرابته . يقول [١] :

أأخـــي إن أمامنـــا كربـــاً لهـــا ... شـــغب ، وإن أمامنـــا أهـــولاً
أأخي لا تجعـــل عليـــك لطالـــب ... يتتبـــع العثـــرات منـــك مقـــالاً
وأرى التواصل في الحياة فلا تدع ... لأخيك جهدك ما حييت وصـــالاً
أأخـــي إن الخلـــق فـــي طبقاتـــه ... يمسي ويصـــبح للإلـــه عيـــالاً
والله أكرم مـــن رجـــوت نوالـــه ... والله أعظـــم مـــن ينيـــل نـــوالاً
ملك تواضـــعت الملـــوك لعـــزه ... وجلالـــه ســـبحانه وتعـــالى
لا شيء منه أدق لطـــف إحاطـــة ... بالعـــالمين ولا أجـــل جـــلالاً

ونلاحظ نداءه بلفظ " أُخَيَّ " وكأنه يرى أن إخوته من بنـــي جنســـه مـــازالوا صغاراً يحتاجون إلى العظة والنصيحة ، كما أن هذه اللفظة فيها معنى الحـــدب والحب والحنو فهو يحمل لهم الكثير من الخوف عليهم والشفقة بهم .

ويرى أن من سبل النجاة والسلامة في الدنيا الانشغال بـــأمر الـــنفس وتـــرك فضول الكلام . يقول [٢] :

ألا إن أبقى الزخر خيـــر تنيلـــه ... وشر كـــلام القـــائلين فضـــوله
عليك بما يغنيك من كل ما ترى ... وبالصمت إلا عن جميل تقولـــه

ويدعو مراراً إلى الصبر على الخطوب والمصائب والبلايا ففي الصبر راحة نفسية عظيمة ويوضح أن الابتلاء سنة من سنن الله في خلقه فعلى الإنســـان أن يلوذ بالله في كل أموره [٣] .

اصـــبر لكـــل مصـــيبة وتجلـــد ... واعلم بأن المـــرء غيـــر مخلـــد
أو ما ترى أن المصـــائب جمـــة ... وترى المنيـــة للعبـــاد بمرصـــد

---

(١) السابق ص ٣٤٨ .

(٢) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني ص ٣٤٩ .

(٣) الأنوار الزاهية ص ٧٥ وديوان أبي العتاهية ص ١٢٩ .

من لم يصب ممن ترى بمصيبة ؟ هذا سبيل لست منه بمفرد
وإذا ذكرت العابدين وذلهم فاجعل ملاذك بالإله الأوحد[١]

ويقول في موضع آخر حاثاً على الصبر والصدق [٢] :

و إذا الأمور تزاوجت فالصبر أكرمها نتاجاً
والصدق يعقد فوق رأ س حليفه للبر تاجاً
والصدق يثقب زنده في كل ناحية سراجاً

ويدعو إلى مغالبة الهوى مراراً ، فكم من لذة أورثت خيبة وبواراً ، ومما يعين على مغالبة الهوى تذكر الإنسان حلوله منازل الأموات ، فالسعيد من بات قانعاً راضياً مقيماً على التقوى ، مؤدياً حق الله في ماله بالزكوات والصدقات وأجل الصدقات ما كانت في الأقارب الفقراء عارفاً للجار حقه من قضاء الحوائج وأنواع الصلات . يقول [٣] :

أشرب فؤادك بغضة اللذات واذكر حلول منازل الموت
لا تلهينك عن معادك لذة تفنى وتورث دائم الحسرات
إن السعيد غدا زهيد قانع عبد الإله بأحسن الإخبات
أقم الصلاة لوقتها بطهورها ومن الضلال تفاوت الميقات
وإذا اتسعت برزق ربك فاجعلن منه الأجل لأوجه الصدقات
في الأقربين وفي الأباعد تارة إن الزكاة قرينة الصلوات
وارع الجوار لأهله متبرعاً بقضاء ما طلبوا من الحاجات

---

(١) هذا البيت محرف بأكلمه ، وصوابه :

و إذا ذكرت محمداً ومصابه فاذكر مصابك بالنبي محمد

انظر موقع المنهج على الشبكة العالمية للمعلومات تحت عنوان " الأب لويس شيخو يحرف شعر أبي العتاهية " .

(٢) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ١١٣ .

(٣) السابق ص ٧٩ .

واستمع إليه وهو يسوق هذه الوصية التي خرجت من قلب رجل خبر الحياة وتقلبت به الأحوال بين الفقر والغنى ، بين مجالسة المخنثين ومناشدة المترفين ، بين عيشة لهو ورعونة وعيشة زهد وسكينة .

يقول [١] :

رغيف خبز يابس ... تأكله في زاوية
وكوز ماء بارد ... تشربه من صافية
وغرفة ضيقة ... نفسك فيها خالية
أو مسجد بمعزل ... عن الورى في ناحية
تدرس فيه دفتراً ... مستنداً بسارية
معتبراً بمن مضى ... من القرون الخالية
خير من الساعات في ... فئ القصور العالية
تعقبها عقوبة ... تصلى بنار حامية
فهذه وصيتي ... مخبرة بحالية
طوبى لمن يسمعها ... تلك لعمري كافية
فاسمع لنصح مشفق ... يدعى أبا العتاهية

ويدعو إلى صدق الحديث والبعد عن حشو الكلام واللغط فيه يقول [٢] :

اعمد إلى صدق الحديث فإنه ... أزكى فنونه
والصمت أجمل بالفتى ... من منطق في غير حينه
لا خير في حشو الكلام ... إذا هديت إلى عيونه

واستمع إليه يواسي أبا بكر بن المعتمر الذي شكا إليه ضيق القيد وغم الحبس بهذه الأبيات الموجزة البليغة [٣] :

---

(١) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٤٨٨ .

(٢) السابق ص ٤٤٩ .

(٣) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني ص ٢١٩ .

هـــي الأيـــام والعبـــر وأمـــــر الله ينتظـــــر
أتيـــأس أن تـــرى فرجـــا فـــــأين الله والقـــــدر

ولم تقتصر دعوة أبي العتاهية وتقديم نصحه للأفراد وعامة الشعب فحسب بل تخطتهم إلى العلماء والخلفاء والرؤساء وعلية القوم حتى يرعووا ويرتدعوا ويثوبوا إلى رشدهم .

فنراه يدعو العلماء إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعليهم أن يردعوا الظالم بنهيه عن الظلم وتبصرته حتى يكف عن ظلمه . يقول [١] :

لم لا نبادر ما نراه يفوت إذ نحن نعلم أننا سنموت
من لم يوال الله والرسل التي نصحت فوليه الطاغوت
علماؤنا منا يرون عجائباً وهم على ما يبصرون سكوت
تفنيهم الدنيا بوشك زوالها فجميعهم بغرورها مبهوت

وقال في قاض معرضاً به وبجوره وظلمه [٢] :

همَّ القاضي بيت يطرب قال القاضي لما عوتب
ما في الدنيا إلا مذنب هذا عذر القاضي واقلب

ونراه يجند نفسه لمهمة المصلح الاجتماعي الذي يعنيه أمر الأمة فيتوجه بصوته إلى الخليفة معلنا ضجره وسخطه على ما يراه من أوضاع تضر بالمجتمع البشري بله الإسلامي فيقول [٣] :

من مبلغ عن الإما م نصائحاً متواليـــة
إني أرى الأسعا ر أسعار الرعية غاليـــة
وأرى المكاسب نزرة وأرى الضرورة فاشية

---

(١) السابق ص ٧٠ .
(٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٧ ص ٨٧ .
(٣) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٤٨٧ .

وأرى عمـــوم الـــدهر را ئحـــة ، تمـــر وغاديـــة
وأرى المراضـــع فيـــه عـــن أولادهـــا متجافيـــة
وأرى اليتـــــامى والأرا مـــل فـــي البيـــوت الخاليـــة
مـــن بـــين راج لـــم يـــزل يســـمو إليـــك وراجيـــة
يشـــكون مجهـــدة بأصـــوا ت ضـــعاف عاليـــة
يرجـــون رفـــدك كـــي يـــروا ممـــا لقـــوه العافيـــة
مـــن يرتجـــي للنـــاس غيـــر ك للعيـــون الباكيـــة
مـــن مصـــبيات جـــوع تمســـي وتصـــبح طاويـــة
مـــن يرتجـــي لـــدفاع كـــر ب ملمـــة هـــي ماهيـــة
مـــن للبطـــون الجائعـــا ت وللجســـوم العاريـــة
مـــن لارتبـــاع المسلميـــ ن إذا ســـمعنا الواعيـــة
يـــا ابـــن الخلائـــف لا فقـــد ت ولا عـــدمت العافيـــة
إن الأصـــول الطيبـــا ت لهـــا فـــروع زاكيـــة
ألقيـــت أخبـــاراً إليـــ ك مـــن الرعيـــة فاشـــية

وكما رأينا الشاعر يعلن بصراحة عن سوء الأحوال الاقتصادية والتي انعكس أثرها على مظهر الناس ومخبرهم ، فتراهم حفاة عراة يجتاحهم الفقـر ويقتـل نفوسهم رويداً رويدا لذا لم يجدوا أمامهم إلا الشـكوى تنفيسـاً عـن صـدرهم المكلوم .

* * *

الموت عند أبي العتاهية

من المعاني الهامة التي حواها موضوع الزهد عند أبي العتاهية الموت ، ولا نبالغ إذا قلنا إن أبا العتاهية أكثر الشعراء حديثا عن الموت ، وقد أدت كثرة حديثه عنه – كما سبق أن بينّا – إلى الشك في زهده واتهام البعض له بأنه غير صادق فيه لأنه منصب على ذكر الموت دون ذكر الحشر والبعث والحساب والجنة والنار ، وقد فصّلنا القول في هذه القضية فلا معنى للتكرار هنا .

وتناول أبي العتاهية للموت متعدد المناحي والأهداف ، فقد يركز على حقيقته وحتمية وقوعه وأنه لا منجى منه لمخلوق ، وقد يركز على مصير الإنسان في قبره وما بعد القبر من بعث وحشر وثواب وعقاب وجنة ونار ، وغرضه من ذلك إعداد العدة بفعل الصالحات ادخاراً لهذه المواقف ، وقد يخاطب من في القبور ، وأحياناً يخاطب القبور نفسها ، إلى غير ذلك من الأفكار ، و غرضه الأول إن لم يكن الأوحد العظة والتذكرة والاعتبار حتى لا يغتر الإنسان بنفسه ويتزود بالصالحات وكل ما يؤهله إلى السعادة والحبور في جنة الرحيم الغفور .

فنراه يؤكد على حتمية الموت ، وحتمية وقوعه وأنه لا منجى منه لمخلوق ، فكل نفس – كما قال الحق تبارك وتعالى – ذائقة الموت يستوي في ذلك نفس الكبير والصغير والغني والفقير ، وهو سنة من سنن الله في خلقه ، وحسب الإنسان إيماناً به أن ينظر في الممالك الذاهبة والأمم البائدة ، فيسأل نفسه أين ذهبوا ، بل حسبه أن ينظر في خلق الله من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا فيقول [١] :

يا نفس أين أبي وأين أبو أبي	وأبوه عدي لا أبا لك واحسبي
عدي فإني قد نظرت فلم أجد	بيني وبين أبيك آدم من أب
قد مات ما بين الجنين إلى الرضيـ	ـع إلى القطيم إلى الكبير الأشيب

(١) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني ص ٤٥ .

ويستدل على حتمية الموت بموت الملوك وموت الأنبياء والأصفياء من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول [١] :

لا يأمن الدهر إلا الخائن البطر ... من ليس يعقل ما يأتي وما يذر
لا يجهل الرشد من خاف الإله ومن ... أمسى وهمته في دينه الفكر
فيما مضى فكرة فيها لصاحبها ... إن كان ذا بصر في الرأي معتبر
أين القرون وأين المبتنون لنا ... هذه المدائن فيها الماء والشجر
وأين كسرى أنشروان مال به ... صرف الزمان وأفني ملكه الغير
بل أين أهل التقى والأنبياء ومن ... جاءت بفضلهم الآيات والسور
اعدد أبا بكر الصديق أولهم ... وناد من بعد في الفضل أيا عمر
وعد من بعد عثمان أبا حسن ... فإن فضلهما يروى ويذكر
لم يبق أهل التقى فيها لبرهم ... ولا الجبابرة الأملاك ما عمروا

كما يتخذ من موت الملوك الذين يضرب بملكهم المثل العبرة والعظة ويسوقها دليلاً صادقاً لهذه الحقيقة التي لا مراء فيها ، وهو الموت الذي لا يطيش سهمه . يقول [٢] :

المنايا تجوس كل البلاد ... والمنايا تبيد كل العباد
لتنالن من قرون أراها ... مثل ما نال من ثمود وعاد
هن أفنين من مضى من نزار ... هن أفنين من مضى من إياد
هل تذكرت من خلا من بني الأصـ ... ـفر أهل القباب والأطواد
هل تذكرت من خلا من بني سا ... سان أرباب فارس والسواد
أين داود أين أين سليما ... ن المنيع الأعراض والأجناد
راكب الريح قاهر الجن والأنـ ... ـس بسلطانه مذل الأعادي

---

(١) السابق ص ١٨٠ .

(٢) السابق ص ١٣١ .

أين أين النبـــي صـــلى الله عليـــ ـــه من مهتدٍ رشـــيدٍ وهـــاد [١]
أيـــن نمـــرود وابنـــه قـــارو ن وهامـــان ، أيـــن ذو الأوتـــاد
إن فـــي ذكـــرهم لنـــا لاعتبـــاراً ودلـــيلاً علـــى ســـبيل الرشـــاد

ويعرض الشاعر خواطره في الموت ، ويبين ما في القبور من صالح وطالح ويلقي على نفسه باللوم ، مبيناً أنه لو اتعظ فعلا بما يجري على مسرح الحياة من موت دؤوب يباغت الإنسان ، ويأخذ البشر واحدا تلو الآخر لسهرت عينه إشفاقاً على نفسه ولهام على وجهه في الأرض . يقول [٢] :

كم وكم في القبور من أهـــل دنيـــا كم وكم في القبور مـــن زهـــاد
لو بذلت النصح الصحيح لنفســـي لم تذق مقلتـــاي طعـــم الرقـــاد
لو بذلت النصح الصحيح لنفســـي همت أخرى الزمان في كـــل واد
بؤس لي بؤس ميتـــا يـــوم أبكـــي بـــين أهلـــي وحاضـــر العـــواد
كيف ألهو وكيف أسلوا وأنسى الـــ مـــوت والمـــوت رائـــح وغـــاد
أيها الواصلي ســـترفض وصـــلي عنك لو قد أذقت طعـــم افتقـــادي
يا طويل الرقاد ، لو كنت تـــدري كنت ميت الرقاد حـــي الســـهاد

ويوضح أن للموت رسولاً موكلاً يقبض الأرواح وأنه إذا جاء أجل الإنسان لا يؤخر ، ويبين أن الموت يحول بين المرء وعياله ، ويصور تخيله وهو واقـف أمام القبر والتراب يردم عليه ، وكيف بالوارثين الذين لا يرقبون في ميت إلاً ولا ذمة يقتسمون ماله .

---

(١) هذا البيت محذوف من الأنوار الزاهية ، وكذلك من الديوان تحقيق أ. كرم البستاني وهـو من جملة الأبيات التي دخلها التحريف . انظر موقع المنهج على شبكة الانترنت تحت عنوان " الأب لويس يحرف شعر أبي العتاهية " . وكذلك مقدمة كتاب " أبـو العتاهيـة " د . شـكري فيصل .

(٢) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ . كرم البستاني – ص ١٣٢ .

يقول [١] :

أتطمع أن تخلد لا أبالك ... أمنت من المنية أن تنالك
أما والله إن لها رسولاً ... وأقسم لو أتاك لما أقالك
تنظر حيث كنت قدوم موت ... يشتت بعد جمعهم عيالك
كأني بالتراب عليك ردماً ... وبالباكين يقتسمون مالك
ألا فاخرج من الدنيا جميعاً ... وزج من المعاش بما زجالك

ويتعرض لكرب الموت بالحديث ، وما يعانيه المحتضر من غصص وشدائد ، فكلما مر الوقت قربته شدائد الموت منه حتى يلقى الله تعالى .

يقول [٢] :

ألا يا أخانا إن للموت طلعة ... وإنك منذ صورت تقصد قصدها
وللمرء عند الموت كرب وغصة ... إذا مرت الساعات قربن عهدها
لك الخير أما كل نفس فإنها تموت ... وإن حادت عن الموت جهدها
ستسلمك الساعات في بعض مرها ... إلى ساعة لا ساعة لك بعدها

ويعدد المراحل التي يمر بها الإنسان أثناء احتضاره ، وما بعد الموت من بعث وحساب وكتاب وميزان وصراط وجنة ونار ، ليأخذ من كل هذا العبرة والعظة ويسوقها لبني جنسه حتى يرعووا ويجدُّوا في الطاعة . يقول [٣] :

كل نفس ستقاسي مرة ... كرب الموت فللموت كرب
وسقام ثم موت نازل ... ثم قبر ونشور وجلب
وحساب وكتاب حافظ ... وموازين ونار تلتهب

---

(١) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٣١٤ .

(٢) السابق ص ١٥٠ .

(٣) السابق ص ٤٣ . الشطر الثاني من البيت الثاني كان في الديوان "ثم قبر ونزول وجلب " تم تصويبه من شبكة المنهج " ثم قبر ونشور وجلب " .

وصراط من يقع عن حده ... فإلى خزي طويل وتصب
حسبي الله إلهاً عادلاً ... لا لعمر الله ماذا يلعب

ويوضح أن الأمر لو كان قاصراً على الموت لهان ، ولكن ما بعد الموت أدهى وأمر ، فهناك حشر ونشر وجنة ونار ، فحرى بالعاقل أن يعد العدة .

يقول [١] :

فلو كان هول الموت لا شيء بعده ... لهان علينا الأمر واحتقر الأمر
ولكنه حشر ونشر وجنة ... ونار وما قد يستطيل به الخبر

ويؤكد في موضع آخر أن الموت في حقيقته نقلة ، نقلة من المنزل الفاني وهو الدنيا إلى المنزل الباقي وهو الآخرة ، يقول [٢] :

وما الموت إلا رحلة غير أنها ... من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي

ويحث نفسه على زيارة القبور علّها ترعوى وتأخذ العبرة ، يقول [٣]:

نفسي زوري القبور واعتبريها ... حيث فيها لمن يزور عظات
وانظري كيف حال من حل فيها ... بعد عز ، وهم بها أموات
حرصوا أملوا كحرصك يا نف ... س ووافاهم الحمام فماتوا
فالسرات العظام منهم عظام ... في بطون الثرى حطام رفات
فكأن قد حللت في مصرع القـ ... وم وحلت بجسمك المثلات

فلنا – حقاً – في موت عِلية القوم وسراتهم عبرة وعظة ، إذ صاروا بعد العظمة عظاماً وبعد الترف والنعيم رفاتاً .

ويصل به الوله والحيرة غايته،فيخاطب مالايعقل ويسأل القبر عما بداخله وكيف صَيَّر من فيه عظاماً نخرة ، وصير لحمهم جيفة قذرة ذات رائحة كريهة نتنة .

---

(١) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ١٨٩ .
(٢) السابق ص ٢٨٩ .
(٣) السابق ص ٩٧ .

يقول [١] :

إنى سألت القبر ما فعلت ... بعدي وجوه فيك منعفرة[٢]
فأجابني صيَّرت ريحهم ... تؤذيك بعد روائح عطرة
وأكلت أجساداً منعمة ... كان النعيم يهزها نضرة
لم أبق غير جماجم عريت ... بيض تلوح وأعظم نخرة

وقد استعان بهذا الحوار الطريف الذي أجراه بينه وبين القبر في توضيح فعل الموت بالإنسان لعله يتذكر مرقده فيه ، فيرعوى وينتهي عن ظلمه وغيّه .

وكثيراً ما يخاطب ساكني الأجداث سائلاً إياهم عن أحوالهم سؤال الخائف الوجل المترقب لمصيره ، الذي سبقه إليه إخوانه ، لذا نراه يبكي بكاءاً مريراً . فيقول [٣] :

يا معشر الأموات يا ضيفان تر ... ب الأرض كيف وجدتم طعم الثرى
أهل القبور ، كفى بنأي دياركم ... أن الديار بكم لشاحطة النوى
كم من أخ لي قد وقفت بقبره ... فدعوته الله درك من فتى
أأخي لم يقك المنية إذ أتت ... ما كان أطعمك الطبيب وما سقى
أأخي لم تغن التمائم عنك ما ... قد كنت أحذره عليك ولا الرقى
أأخي لم تغن التمائم عنك ما ... قد كنت احذره عليك ولا الرقي
أأخي كيف وجدت مس خشونة الـ ... ـمأوى ، وكيف وجدت ضيق المتكأ
قد كنت أفرق من فراقك سالماً ... فأجل منه فراق دائرة الردى
فاليوم حق لي التوجع إذ جرى ... حكم الإله عليّ فيك بما جرى
يبكيك قلبي بعد عيني حسرة ... وتقطعا منه عليك إذا بكى
وإذا ذكرتك يا أخي تقطعت ... كبدي فأقلقت الجوانح والحشا

---

(١) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني ص ٩٧ .

(٢) منعفرة : مدسوسة ومتمرغة فيه .

(٣) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٢٨ .

فالأبيات تفيض جوى وحسرة وتقطر أسى وتزف إلينا عبرة وعظة وتنتزع الدمعة ، إذ هي تصور حال من حال بينهم الموت فأصبحوا نسياً منسيا بأسلوب رقيق وعاطفة جياشة .

وفي موضع آخر يتخيل منيته وإقباره وإفراده ليس له أنيس إلا ما قدم من عمل فيقول [١] :

كأن الأرض قد طويت عليا ... وقد أخرجت مما في يديا
كأني يوم يحثو الترب قومي ... مهيلا لم أكن في الناس شيا
كأن القوم قد دفنوا وولوا ... وكل غير ملتفت إليا
كأن قد صرت مفرداً وحيداً ... ومرتهناً هناك بما لديا
كأن الباكيات عليَّ يوما ... وما يغني البكاء عليَّ شيا
ذكرت منيتي فبكيت نفسي ... ألا أسعد أخيك أي أخيا

ومن عجيب الشكوى ، شكوى حيَّ إلى ميت قد انقطعت به أسباب الحياة ، ولا شك أن هذا النوع من الشكوى يرفده عامل نفسي هو هذا الضيق الذي أطبق على صدر الشاعر من الأحياء فهم لا يحفظون لميت وداً ، ولم يأبهوا لفراقه ، فسرعان ما استبدلوا به إناساً آخرين لذا حق له الضجر والسآمة والضيق يقول [٢] :

أهل القبور عليكم مني السلام ... إني أكلمكم وليس بكم كلام
لا تحسبوا أن الأحبة لم يسغ ... من بعدكم لهم الشراب ولا الطعام
كلا لقد رفضوكم واستبدلوا ... بكم وفرق ذات بينكم الحمام
والخلق كلهم كذلك وكل من ... قد مات ليس له على حي ذمام
ساءلت أجداث الملوك فاخبر ... تني أنهم فيهن أعضاء وهام
لله ما وارى التراب من الألى ... كانوا الكرام هم إذا ذكر الكرام

(١) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٤٨٠ .
(٢) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٣٨٨ .

لله ما وارى التراب من الألى ... كانوا وجارهم منيع لا يضام
يا صاحبيَّ نسيت دار إقامتي ... وعمرت داراً ليس لي فيها مقام
دار يريد الدهر نقلة أهلها ... وكأنهم عما يراد بهم نيام
ما نلت منها لذة إلا وقد ... أبت الحوادث أن يكون لها تمام

ولا يخفي عليك روح الندبة في الأبيات ندبة الأصحاب والخلان ويعدد أبو العتاهية جملة من المراحل التي يمر بها الإنسان من مرض وموت ، تغسيل وتكفين وصلاة ودفن وإفراد ... الخ

فيقول [١] :

ربَّ مذكور لقوم ... غاب عنهم فنسوه
وإذا أفنى سنيه ... ه المرء أفنته سنوه
كأن بالمرء قد يبـ ... ـكي عليه أقربوه
وكأن القوم قد قا ... موا فقالوا أدركوه
سائلوه كلموه ... حركوه ، لقنوه
فإذا استيأس منه ... القوم قالوا أحرفوه [٢]
حرفوه ، وجهوه ... مددوه غمضوه
عجلوه لرحيل ... عجلوا لا تحبسوه
ارفعوه غسلوه ... كفنوه حنطوه
فإذا ما لف في الأكـ ... ـفان قالوا فاحملوه
أخرجوه فوق أعوا ... د المنايا شيعوه
فإذا صلوا عليه ... قيل هاتوا واقبروه
فإذا ما استودعو ... ه الأرض رهنا تركوه
خلفوه تحت رمس ... أوقروه أثقلوه

---

(١) السابق ص ٤٧٢ .

(٢) أحرفوه بمعنى اميلوه فعل أمر من مال .

أبعـــــدوه أســـــحقوه　　أوحـــــدوه أفـــــردوه
ودّعـــــوه فـــــارقوه　　أســـــلموه خلفـــــوه
وانثنـــــوا عنـــــه　　وخلـــوه كـــأن لـــم يعرفـــوه
وكـــــأن القـــــوم فيمـــــا　　كـــــان فيـــــه لـــــم يلـــــوه

ولا شك أن في هذا السرد التفصيلي لهذه المراحل التي يمر بهـا المـريض مرض الموت حتى إقباره دليل على انشغال الشاعر بأمر المصير وسيطرة حقيقة الموت عليه ، وامتلاكها أقطاب نفسه ، كما يدل على سآمة وضجر ، بل وشيء من التشاؤم من بني جنسه الذين لا يألمون ولا يأبهون بفراق الأحباب والخلان .

ولأبي العتاهية نظرة في الحي والميت ، فليس الميت من انقطعت به أسـباب الحياة وحمل إلى قبره بل الميت من أتبع نفسه هواها وأضـلها بجهلـه وحمقـه واشترى الضلالة بالهدى ، أما الحي فهو من أبقى له ذكرا حسنا يحي بـه فـي الناس بعد موته باكتساب دينه وحسن خلقه .

يقول [١] :

من الناس ميت وهو حي بذكره　　وحي سليم وهو في الناس ميـت
فأما الذي قد مات والذكر ناشـر　　فميت له دين به الفضـل ينعـت
وأما الذي يمشي وقد مات ذكره　　فأحمق أفنى دينه وهـو أمـوت

وتلك نظرة صائبة للحي والميت .

ما بعد الموت :

لم يقتصر شعر أبي العتاهية – كما أشاع البعض وكما بينّـا – علـى ذكـر الموت – بل تخطاه إلى تصوير ما يحدث للإنسان بعد دفنه مـن سـؤال القبـر وعذاب فيه أو نعيم ، وأشراط الساعة وروعاتها والبعث ، والنشر ، والحشر ، والوقوف بين يدي المولى سبحانه وتعالى للحساب والجزاء ، وسؤال الإنسان عن

---

(١) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني ص ٧٥ .

كل ما جنته يداه في الدنيا ، و الصراط وحدته والجنة ونعيمها والنار وجحيمها إلى غير ذلك من معان .

وهذا كله أورده أبو العتاهية خدماً لموضوعه الرئيسي وهو التزهيد في الدنيا بالتذكرة بزوالها حتى يجدُّ الإنسان ويسعى ويكتسب من الحسنات ما شاء الله أن يكتسب .

ومن أهم المعاني التي تناولها أبو العتاهية فيما بعد الموت سؤال القبر .

فقد أشار إلى هذه الحقيقة وما يترتب عليها من سعادة ونعيم أو عذاب وجحيم ، إلى أن تقوم الساعة بإذن الله .

فنراه يسأل نفسه – سؤال الخائف الوجل – عن سؤال الملكين له في قبره ، ويخاصم نفسه الأمارة لغوايتها إياه واتباعها لخطوات الشيطان ، وينعي نفسه إلى نفسه من مخاوف ينتظرها في القبر ، وبعد البعث ، ولا يملك حيال هذه المخاوف والغيبيات التي سيلاقيها إلا أن يرفع أكف الضراعة إلى علاَّم الغيوب – فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه – أن يمنَّ عليه وألا يُخَيِّب رجاءه . يقول [١] :

لا عذر لي قد أتى المشيب ... فليت شعري متى أتوب

إبليس قد غرني ونفسي ... ومسني منها اللغوب

ولست أدري إذا أتاني ... رسول ربي بما أجيب

وهل أنا عند الجواب ناجٍ ... أم لي من ناره نصيب

يا رب جد لي على رجائي ... بمنةٍ منك لا أخيب

ويقرر حقيقة البعث بعد الموت وما يتبعه من حساب عن كل شيء يقول [٢] :

فلو أنا إذا متنا تركنا ... لكان الموت راحة لكل حي

---

(١) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٣٨ .

(٢) السابق ص ٤٨٣ .

ولكنـــا إذا متنـــا بعثنـــا ونسأل بعـده عـن كـل شـيء

ونراه ينعى نفسه في تفريطها وتقصيرها في جنب الله ، وكأنهـا قـد أمنـت العقاب ، ففي الحساب سؤال عن كل شيء . يقول [١] :

وموعد كل ذي عمـل وسـعي بمـا أسـدى غـداً دار الثـواب
تقلدت العظـام مـن الخطايـا كأني قـد أمنـت مـن العقـاب
ومهما دمت في الدنيا حريصـا فـإني لا أوفـق للصـواب
سأسأل عن أمـور كنـت فيهـا فما عذري هناك ومـا جـوابي
بأية حجـة أحـتج يـوم الـ حساب إذا دعيت إلى الحسـاب
هما أمران يوضح عنهمـا لـي كتابي حين أنظـر فـي كتـابي
فإمـا أن أخلـد فـي نعـيم وإمـا أن أخلـد فـي عـذابي

ويخاطب نفسه مذكراً إياها بالسؤال الذي ينبغي أن تعد له جواباً فلها البشرى إذا يسرت لليسرى يقول [٢] :

أيـا نفـس إن اليـوم يـوم تفـرغ فدونكه من قبل يـوم اشـتغالك
و مسئولة يا نفـس أنـت فيسـري جواباً ليوم الحشر قبـل سـؤالك
ومسكينة يـا نفـس أنـت فقيـرة إلى خير ما قدمته مـن فعالـك
هو الموت فاحطاطي له وابشري إذا نجوت كفافا لا عليـك ولا لـك

ويؤكد أن الفائزين برضوان الله ورضاه هم من تعهدهم الله بحفظه وسلَّمهم من الشرور والخطايا ، وحُق لمن حفظه الله الحمد الدائم له سبحانه على عظيم فضله ، ويعجب من غفلة الناس عن يوم الموقف الأعظم يوم الحشر يوم يلجـم فيـه الناس العرق يقول [٣] :

---

(١) السابق ص ٤٧ .
(٢) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ١١٣ .
(٣) السابق ص ٢٨٨ .

أخي إنا لنحن الفائزون غدا ... إن سلم الله من دار لها علق
الحمد لله حمداً لانقطاع له ... ما إن يعظم إلا من له ورق
الحمد لله حمدا دائما أبدا ... فاز الذين إلى ما عنده سبقوا
ما أغفل الناس عن يوم انبعاثهم ... ويوم يلجمهم في الموقف العرق

يعرب عن الهم الذي أطبق على صدره لجهله بمصيره ، وإلى أين سيكون مآله ، وهل سيعطى كتابه بيمينه أم بشماله في يوم لا ينفع فيه النصير والمعين فلا ملجأ – يومئذ من الله إلا إليه .

ويؤكد أن نيل الغاية والعمل لها سبيل للوصول إليها فإذا كانت غاية الإنسان الجنة وحنينه أبدا إليها رأيته يسعى ويتزود من أجلها بالبر والتقوى يقول [١] :

ألا من لمهموم الفؤاد حزينه ... إذا ابتز منه العزم ضعف يقينه
وإذا هو لا يدري لعل كتابه ... سيعطاه منشوراً بغير يمينه
ويلتمس الإحسان بعد إساءة ... فلا تحسبن الله غير معينه
إذا ما اتقى الله امرؤ في أموره ... وكان إلى الفردوس جل حنينه
سعى يبتغي عوناً على البر والتقى ... ليبتاعه من ماله بثمينه

ويقول في موضع آخر [٢] :

جعل الرحمن بين المنايا ... أنفس الخلق جميعاً نهاباً
ليت شعري بلساني أيقوي ... يوم عرضي أن يرد الجوابا
ليت شعري بيميني أعطى ... أم شمالي عند ذاك الكتابا

ويذكر جملة من أهوال يوم القيامة ، يوما يجعل الولدان شيبا يوم الزلازل والنوازل ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ،

---

(١) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٤٨٨ .
(٢) السابق ص ٥٣ .

يوم التغابن . يقول [١] :

الحمـــد لله الحميـــد بمنـــه ... خسرت ولم تـــرج يـــد البطَّـــال
لله يـــوم تقشـــعر جلـــودهم ... وتشيب منـــه ذوائـــب الأطفـــال
يوم النوازل والزلازل والحـــوا ... مـــل فيـــه إذ يقـــذفن بالأحمـــال
يوم التغـــابن والتبـــاين والتنـــا ... زل والأمور عظيمـــة الأهـــوال
يوم ينـــادى فيـــه كـــل مضـــلل ... بمقطعـــات النـــار والأغـــلال

ونراه يُذكر الإنسان بيوم الحشر والحساب مصوراً التباين البيّن بين أهل الجنة وأهل النار .

يقول [٢] :

وما الناس إلا ميـت وابـن ميـت ... تأجـل حـي مـنهم أو تعجـلا
ولا تحســبن الله يخلـــف وعـــده ... بما كان أوصى المرسلين وأرسلا
هو الموت يا ابن الموت والبعث بعده ... فمن بين مبعوث مخفـا ومـثقلا
ومن بين مسحوب على حر وجهـه ... ومن بين من يأتي أغر محجـلا

وبعد تناولنا للموت وما بعده عند أبي العتاهية نختمه برأي د. يوسف خليف عنه إذ يقول [٣] :

" وأكثر ما يقف عنده أبو العتاهية في حديثه عن الموت منظران : منظر سكرات الموت ومنظر القبور ، ويتخير دائما لها الأوضاع التي تثير في النفس التشـاؤم والاكتئاب والوحشة والرهبة والفزع ، وقصده من ذلك تنبيه الغافلين ، ليـوقظهم من سباتهم الذي اطمأنوا إليه ويبغض إليهم الحياة ويدفعهم دفعاً إلى التفكير فـي الآخرة وما ينتظرهم فيها من ثواب وعقاب وموضوع الموت يعد خطوة للتطهير

---

(١) السابق ص ٣٢٦ .

(٢) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني ص ٣٤٥ .

(٣) في الشعر العباسي نحو منهج جديد – مكتبة غريب – القاهرة ص ٧٧ .

تطهير النفس من حب الدنيا لتخلو لحب الآخرة ، ومن هنا كان طبيعياً أن يتحدث عما بعد الموت لأنه الخطوة التالية التي تأتي بعد خطوة التطهير .

وحديث أبي العتاهية عما بعد الموت يسير في جو إسلامي خالص ، يستمد معانيه وأفكاره ، مما ورد عن هذا الموضوع في القرآن والحديث . ولهذا نلاحظ أن الحيرة التي تميز شعر أبي العلاء حين كان يتحدث عن مشكلة ما بعد الموت تختفي كلها من شعر أبي العتاهية ليحل محلها الإيمان الديني المطمئن واليقين الثابت الذي يستمد ثباته من الدين لا من العقل والواقع ، إن حديث أبي العتاهية عن هذه المشكلة لا يخرج في مجموعه عن الدائرة الإسلامية فبعد الموت ستكون هناك حياة أخرى ، وسيكون بعث ونشور وحساب وثواب وعقاب وجنة ونار بل سيكون هناك سؤال عن كل شيء ، وحساب على كل ما قدم الإنسان من عمل في حياته الدنيا " .

الجنة و النار :

ليس بصحيح – كما سبق بيانه – أنَّ أبا العتاهية لم يتناول في شعره الزهدي غير الموت . فله العديد من الأشعار التي يذكر فيها الجنة والنار مرغبا ومرهباً .

فنراه يصور الجنة وما فيها من ظل ظليل ، ونعيم دائم ، وروح وريحان وعين فيها تسمى سلسبيلا . يقول [١] :

يا خاطب الدنيا لأزواجها	تعدهم عدا قتيلا فتيل
أسل عن الدنيا وعن ظلها	فإن في الجنة ظلا ظليل
إن في الجنة للروح والـ	ريحان والراحة والسلسبيل
من دخل الجنة نال الرضى	مما تمنى واستطاب المقيل

ويقول أيضا متعجبا ممن يطمعون في الجنة ويتمتعون في الفرش وينامون عن

---

(١) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٣٣٣ .

طلبها [١] :

عجبت للنار نام راهبها ... وجنة الخلد نام راغبها
عجبت للجنة التي شوق اللـ ... ـه إليها إذ نام طالبها
إني لفي ظلمة من الحب للـ ... ـدنيا وأهل التقى كواكبها
من لم تسعه الدنيا لبلغته ... ضاقت على نفسه مذاهبها

يقول أيضا مرغباً فيها [٢] :

أمامك يانومان ، دار سعادة ... يدوم البقا فيها ودار شقاء
خلقت لإحدى الغايتين فلا تنم ... وكن بين خوف منهما ورجاء
وفي الناس شر لو بدا ما تعاشروا ... ولكن كساء الله ثوب غطاء

ويقول مصارحاً الإنسان بحقيقة الأمر ومكاشفاً إياه بالنهاية التي لا مراءفيها [٣] :

لا تكذبن فإنني ... لك ناصح لا تكذبنه
وانظر لنفسك ما استطعـ ... ـت فإنها نار وجنة
واعلم بأنك في زمان ... سطواته أسنة
صار التواضع بدعة ... فيه وصار الكبر سنة

ويقول أيضاً مرغباً في الجنة ومستخدماً الاستفهام التحضيضي [٤] :

ألا هل إلى الفردوس من متشوق ... تحن إليها نفسه وإلى عدن
وما ينبغي أن أسر بليلة ... أبيت بها من ظالم لي على ضغن
ومن طاب لي نفسا بقرب قبلته ومن ... ضاق عن قربي ففي أوسع الأذن

ويشير في موضع آخر إلى ما أعده الله للمتقين في الجنة مما لا عين رأت ولا

---

(١) السابق ص ٦٢ .
(٢) السابق ص ١٣ .
(٣) السابق ص ٤٥٠ .
(٤) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٤٤٠ .

أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كما يشير إلى طلعة أصحاب الجنة وهم يمشون زمراً إليها تشع وجوههم نوراً ، تراهم غراً محجلين من آثار الوضوء. يقول [١] :

للمتقين هناك نزل كرامة ... علت الوجوه بنضرة وجمال
زمر أضاءت للحساب وجوهها ... فلها بريق عندها وتلالي
وسوابق غر محجلة جرت ... خمص البطون خفيفة الأثقال
من كل أشعث كان أغبر ناحلا ... خلق الرداء مرقع السربال

بل تراهم – في الجنة – تجري من تحتهم الأنهار ، لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين . يقول [٢] :

اذكر معادك أفضل الذكر ... لا تنس يوم صبيحة الحشر
يوم الكرامة للأولى صبروا ... فالخير عند عواقب الصبر
في كل ما تلتذ أنفسهم ... أنهارهم من تحتهم تجري

ويرغب في النعيم السرمدي في الجنة وحورها العين فيقول [٣] :

إن العقول لذاهدا ... ت غافلات لاهية
إن العقول عن الجنا ... ن ودورهن لساهية
أفلا تبيع محلة ... تفني بأخرى باقية

وبعد : فحديث أبي العتاهية عن الجنة حديثاً مقتضباً لا يجنح فيه إلى التفصيل والبسط فغايته من سوقه ، هي الترغيب فيها والترهيب من النار والدعوة إلى التمسك بعرى التقوى حتى يحظى الإنسان بنعيم الآخرة .

---

(١) السابق ص ٣٢٧ .

(٢) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ١٩٧ .

(٣) الأنوار الزاهية ص ٣٠٥ – كلمة ودورهن محرفة وصوابها كما في موقع المنهج "وحورهن" .

الدنيا :

من المعاني التي تضمنها شعر أبي العتاهية الزهدي ذم الدنيا والتنفير منها ، فقد أكثر من ذكر الدنيا ، وبَيَّن حقيقتها ، وسبل غوايتها وطريق الخلاص منها ، ونهاية المغترين بها ، والمنجرفين في تيارها المعظمين لشأنها .

وهو في تحقيره لها وتهوينه من شأنها يحاول الأخذ بيد نفسه أولاً ، وبيد بني جنسه ثانياً إلى طريق النجاة ، طريق الفوز بمرضاة الله وبمغفرته سبحانه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بفعل الحسنات وترك المنكرات ، فالدنيا ليست دار إقامة وخلود بل دار معبر ونفود ، فهي زائلة وكل ما فيها الى الله تعالى راجع ، وليس لمخلوق فيها إلا نهاية واحدة هي الموت يستوي في ذلك الغني والصعلوك والشريف والوضيع ، والبر والفاجر ، والسيد والعبد ..

فنراه يحذر الإنسان منها بأخذ الحيطة والحذر ، فقد يباغت الموت الإنسان ويأتيه من حيث لا يعلم . يقول [١] :

لا تأمنن مع الحوا ... دث عثرة الدهر العثور
لو أن عمرك زيد فيـ ... ـه جميع أعمار النسور
أو كنت من زبر الحديـ ... ـد وكنت من صم الصخور
أو كنت معتصماً بأعلى الـ ... ـريد[٢] أو لجج البحور
لأنت عليك دوائر الـ ... ـدنيا وكرات الشهور

ويخاطب الدنيا خطاب العاقل المتزن الذي وقف على حقيقتها ، وشاهد توغلها وتقلبها وتصرف أحوالها يقول [٣] :

ألم تر يا دنيا تصرف حالك ... وغدرك يا دنيا بنا وانتقالك

---

(١) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ. كرم البستاني – ص ١٩٢ .

(٢) الريد : الحرف الناتئ من الجبل / المعجم الوسيط مادة ريد إخراج أ/ إبراهيم أنيس وآخرون – ط الثانية ج ١ ص ٣٨٥.

(٣) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني ص ٣١٣

فلست بدار يستقيم بـــك الرضـــا ولو كنت في كف امرئ بكمالـــك
حرامك يا دنيا يعود إلى غنـــي وذو اللب فينا مشفق من حلالـــك
أليفكِ يا دنيـــا كثيـــر غمومـــه فليس نجاة منك غيـــر اعتزالـــك
أيا نفس لا تستوطني دار قلعـــة ولكن خذي بالزاد قبل ارتحالـــك
أيا نفس لا تنسي كتابك واذكري لك الويل إن أعطيتـــه بشـــمالك
أيا نفس إن اليـــوم يـــوم تفـــرغ فدونكه من قبل يـــوم انشـــغالك

ونلاحظ أن حقيقة المصير والانتقال إلى الله للحساب تكاد تسود الأبيات رغم حديثه فيها عن الدنيا .

ويخاطب الدنيا خطاب القالي المبغض ، وكأنه أشعل نار العداوة بينه وبينها ، وحق له أن يبغضها فقد أغرته كثيراً وانجرف في تيارها سنوات طوال ، تيـــار اللهو والعبث والمجانة حتى أتاه المشيب رسول الموت ونذير الفراق ، يقول [١] :

فالآن يا دنيا عرفتـــك فـــاذهبي يـــا دار كـــل تشـــتت وزوال
والآن صار لي الزمان مؤدبـــا فغـــدا علـــى وراح بالأمثـــال
والآن أبصرت السبيل إلى الهدى وتفرغت هممي عـــن الأشـــغال
ولقد أقام لـــي المشـــيب نعاتـــه يقضـــي إلـــي بمفـــرق وقـــذال
ولقد رأيت الموت يبرق ســـيفه بيد المنية حيـــث كنـــت حيـــالي
ولقد رأيت عرى الحياة تخرمت ولقد تصدى الوارثـــون لمـــالي
و إذا تناسبت الرجال فمـــا أرى نسباً يقـــاس بصـــالح الأعمـــال

ومن خلال هذه المصارحة والمكاشفة من الشاعر يتضح لنا – إلى حد كبير – صدق زهده وسلامة طويته .

ونراه حبوراً مسروراً لتملكه زمام نفسه واستطاعته أن يتغلب على ســـلطانها وهواها ، فأصبح راضياً قانعاً جل همه رضا الله تعالى والوصول إلى الغاية التي

---

(١) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني ص ٣٢٥ .

ليس وراءها غاية ، وهى التقوى التي طالما تاقت إليها نفسه يقول [١] :

سلم على الدنيا سلام مودع ... وارحل فقد نوديت بالترحال
ما أنت يا دنيا بدار إقامة ... ما زلت يا دنيا كفئ ظلال
وحففت يا دنيا بكل بلية ... ومزجت يا دنيا بكل وبال
قد كنت يا دنيا ملكت مقادتي ... فقريتني بوساوس وخبال
حولت يا دنيا جمال شبيبتي ... قبحا ، فمات لذاك نور جمالي
الآن أبصرت الضلالة والهدى ... والآن فيك قبلت من عذالي
وطويت عنك ذيول بردى صبوتي ... وقطعت حبلك من وصال حبالي
وفهمت من نوب الزمان عظاتها ... وفطنت للأيام والأحوال
وملكت قود عنان نفسي بالهدى ... وطويت عن تبع الهوى أذيالي
وتناولت فكري عجائب جمة ... بتصرف في الحال بعد الحال
لما حصلت على القناعة لم أزل ... ملكا يرى الإكثار كالإقلال
إن القناعة بالكفاف هي الغنى ... والفقر عين الفقر في الأموال
من لم يكن في الله يمنحك الهوى عن عقله ... مزج الهوى بملامة وتقال
وإذا الفتى حجب الهوى عن عقله ... رشد الفتى وصفا من الأوحال
وإذا الفتى لزم التلون لم يجد ... أبدا له في الوصل طعم وصال
وإذا توازنت الأمور لفضلها ... فالدين منها أرجح المتقال
برد بيأسك عنك كل مطامع ... قدحت بعقلك أثقب الأشغال
قاتل هواك إذا دعاك لفتنة ... قاتل هواك هناك كل قتال
إن لم تكن بطلاً إذا حمى الوغي ... فاحذر عليك مواقف الأبطال
وإذا سكنت إلى الهدى وأطعته ... ألبست حلة صالح الأعمال
وإذا ظمئت إلى التقى أسقيته ... من مشرب عذب المذاق زلال

---

(١) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٣٢٩ .

وإذا ابتليـــت ببـــذل وجهـــك ســـائلا فابذلـــه للمتكـــرم المفضـــال
صـــل قاطعيـــك وحارميـــك وأعطهـــم وإذا فعلـــت فـــدم بـــذاك ووال
والمـــرء لـــيس بكامـــل فـــي قولـــه حتـــى يـــزين قولـــه بفعـــال

فقد صارحنا أبو العتاهية وعبر بكل شفافية عن حاله مع دنياه ، فقد تقلب في الغواية والضلال سنيناً ثم فك من أسر النفس الأمارة ، وثبت على طريق الخير الموصل إلى رضا الحق تبارك وتعالى ، واتخذ هذا الثبات معراجاً يسدي خلاله النصيحة والعظة لأبناء دينه فهذه العظة تحمل خلاصة تجاربه ، فيدعوهم إلـى التخلص من أسر النفس وغلبة الهوى ، والتمسك بعرى التقوى فبالتقوى صـلاح أمر الإنسان وقوام شأنه في الدنيا والآخرة .

ويسوق العبرة والعظة من حال الملوك المترفين في الدنيا المتلذذين بكل نعيم دنيوي من مأكل ومشرب وملبس ورائحة فياحة عطرة ، وما آل إليه أمرهم بعد الموت ، فقد صاروا أجسادا عريت من الكساء ووجوها منعفـرة ، وقـد أكلـت الأرض أجسامهم وصاروا عظاماً نخرة يقول [١] :

زرت القبور قبور أهل الملك في الد نيا وأهل الرتع فـي الشـهوات
كـانوا ملـوك مآكـل ومشـارب وملابـس وروائـح عطـرات
فإذا بأجسـاد عـرين مـن الكسـا وبأوجه في التـرب منعفـرات
لم تبق منها الأرض غيـر جمـاجم بيض تلـوح وأعظـم نخـرات

ولا شك أن هذه الصورة للملوك بعد وفاتهم صورة أخاذ مؤثرة رغم حقيقتها .

---

(١) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٧٧ .

الحكم والأمثال :

من المعاني التي تناولها شعر أبي العتاهية الزهدي . الحكم والأمثال ، وقد بلغ في هذا اللون الشعري مبلغاً عظيماً ومكانة عالية ، وهذه الحكم تعكس آراء الرجل في الحياة والأحياء من حوله ، وتحمل خلاصة تجارب ثمانين عاماً عاشها الشاعر في عصر يعج بالمتناقضات .

وحكم أبي العتاهية تؤكد مسلكه الزهدي وصدقه فيه من ناحية ، وتصور النفس الإنسانية والمجتمع البشري من ناحية أخرى . فكل حكمه يعضض بعضها بعضا للوصول إلى غاية ينشدها الشاعر ، وهي حمل النفس على نفض اليد من الدنيا ، وتكريس كل القوى الموهوبة لتحقيق رضا الله ، والفوز بالجنة ، وهذا غاية ما تمنى .

ومن حكمه قوله [١] :

هب الدنيا تساق إليك عفوا ... أليس مصير ذاك إلى الزوال

خبرت الناس قرناً بعد قرن ... فلم أر غير ختال وقال

وذقت مرارة الأشياء طرا ... فما طعم أمر من السؤال

توق يداً تكون عليك فضلا ... فصانعها إليك عليك عال

وقوله [٢] :

ألم تر أن الفقر يرجى له الغنى ... وأن الغنى يخشى عليه من الفقر

وقوله [٣] :

أنت ما استغنيت عن ... صاحبك الدهر أخوه

فإذا احتجت إليه ... ساعة مجك فوه

---

(١) ديوان أبي العتاهية تحقيق – أ. كرم البستاني – ص ٣٣٨ .

(٢) السابق ص ١٧٢ .

(٣) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٤٧٤ .

ولا ننسى أرجوزته ذات الأمثال فما بقي منها يمثل آراء الرجل في الحياة ، وهي كما قال عنها أ. أنيس المقدسي [١] : " أكثر حكمها عادي على أن فيها كثيراً مما يبلغ الدرجة الأولى من الجمال " .

ومن أمثاله في هذه الأرجوزة قوله [٢] :

من جعل النمام عينا هلكا مبلغك الشر كباغيه لكا

وقوله [٣] :

يوسع الضيق الرضا بالضيق وإنما الرشد من التوفيق

ومن أمثاله في غير الأرجوزة قوله [٤] :

أجلك قوم حين صرت إلى الغنى وكل غنى في العيون جليل

ولم يفتقر يوما وإن كان معدما جواد ولم يستغن قط بخيل

إذا مالت الدنيا إلى المرء رغبت إليه ومال الناس حيث يميل

وقوله [٥] :

أخوك الذي من نفسه لك منصف إذا المرء لم ينصفك ليس أخوكا

وقوله [٦] :

وللحق أحيانا لعمري مرارة وتثقل علي بعض الرجال ثقيل

وقوله [٧] :

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعنا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

---

(١) أمراء الشعر العربي في العصر العباسي أنيس المقدسي دار العلم للملايين ص ١٦٣ .

(٢) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٤٩٤ .

(٣) السابق ٤٩٥ .

(٤) السابق ص ٣٥٦ .

(٥) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٣٠٨ .

(٦) السابق– ص ٣٣٦ .

(٧) السابق ص ٣٣٦ .

ومن أمثاله السائرة قوله [١] :

وما الموت إلا رحلة غير أنها من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي

وقوله [٢] :

وعليك نفسك فارعها واكسب لها فعلا جميلا

وقوله [٣] :

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

وقوله [٤] :

وإذا انقضى هم امرئ فقد انقضى إن الهموم أشدهن الأحدث

وقوله [٥] :

اصحب ذوي الفضول وأهل الدين فالمرء منسوب إلى القرين

وقد يأتي المثل عنده في بيتين كما في قوله [٦] :

فتجنب الشهوات واحذر أن تكون لها قتيلاً

فلرب شهوة ساعة قد أورثت حزنا طويلاً

* * *

(١) السابق ص ٢٨٩ .

(٢) السابق ص ٢٥٢ .

(٣) السابق ص ٤٩٥ .

(٤) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ١٠٨ .

(٥) السابق ص ٤٩٥ .

(٦) السابق ص ٣٥٢ .

الغزل عند أبي العتاهية

حظيت المرأة بنصيب كبير من شعر أبي العتاهية ، فقد أحب أكثر من واحدة ، أحب زوجته أم أبنائه وأحب سعدى الكوفية النائحة ، وأحب عتبة البغدادية جارية المهدي والمقربة إلى زوجته وابنة عمه رائطة .

وقد اشتهر حبه لعتبة شهرة واسعة ، ولعل مرد ذلك إلى معاناته في حبها ، وإلى جمالها ومكانتها في القصر ، وشدة تعلقه بها مع صدها عنه وعدم إصغائها لتوسلاته .

ولقد كان حبه لها وشدة شغفه بها محط أنظار الكثير من الدارسين ، ومدعاة للشك في زهده وانصرافه عن الدنيا ونعيمها ، فقد عللوا انصرافه إلى الزهد بفشله في حبه ويأسه من حبها له ، الذي أدى به إلى الزهد في كل نعيم دنيوي وفي كل جمال أنثوي .

ومن شعره في عتبة قوله شاكياً شدة وجده وهيامه بهذه الغانية مع عجزه عن الوصول إليها [١] :

أعلمت عتبة أنني ... منها على شرف مطل
وشكوت ما ألقى إليها ... والمدامع تستهل
حتى إذا برمت بنا ... أشكو كما يشكو الأقل
قالت فأي الناس يعـ ... ـلم ما تقول ؟ فقلت كل

وهذا البوح الشخصي يصور معاناة الشاعر في حبه وافتضاح أمره واشتهاره ولم يخجل من تصوير عجزه أمام هذه الغانية عجزاً أدى به إلى النزول للدرك الأسفل من الكرامة والرجولة ، حين نراه يزرف مدامعه أمام امرأة إدراراً لعطفها ، وما يلاقيه من شقوة وعذاب في حبها .

ونراه يشكو في موضع آخر وجده وشدة حبه ، مصرحاً بأن حبه لعتبة وتعلقه

---

(١) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٣٨٥ .

بها كان في بدايته مزح ودعابة ، حتى ابتلي بحبها حقا يقول [١] :

أخلاى بي شجو وليس بكم شـــجو ... وكل امرئ عن شجو صاحبه خلو
وما من محب نـــال ممـــن يحبـــه ... هوى صادقاً إلا سيدخله زهـــو [٢]
بليت وكان المـــزح بـــدء بليتـــي ... فأحببت حقـــاً والـــبلاء لـــه بـــدو
وعلقت من يزهـــو علـــيَّ تجبـــرا ... وإني وفي كل الخصال لـــه كفـــو
رأيت الهوى جمر الغضا غير أنه ... على كل حال عند صـــاحبه حلـــو

وهذه المقطوعة بما تحويه من تصريح وإفضاء بمكامن الذات ، وبما توسم به من تجربة صادقة حية ناقلة لشعور الشاعر ، وبما تضمنته من مرارة الشـــكوى وحرقة الوجد ، تحتوي على الحكمة الصادقة البليغة في بيتيه الثاني والأخير .

ويجري أبو العتاهية حواراً طريفاً بينه وبين صديقه ، مصوراً خلاله شـــغفه بعتبة وامتلاكها ناصية قلبه ، فقد أضناه الحب وقرَّح فؤاده لذا تمنى أن لو مـــات قبل هذه المعاناة ، لأنه سيلاقي في حبها - مـــا عـــاش - التعـــب والهـــوان . يقول [٣] :

أحمد قال لي ولم يدر مـــا بـــي ... أتحـــب الغـــداة عتبـــة حقـــاً ؟
فتنفست ثـــم قلـــت نعـــم حبـــاً ... جرى في العروق عرقـــا عرقـــا
لو تجســـين يـــا عتبـــة قلبـــي ... لوجـــدت الفـــؤاد قرحـــاً تفقـــا
قد لعمري ملَّ الطبيب وملَّ الـــ ... أهل مني ممـــا أقاســـي وألقـــي
ليتني مـــت فاســـترحت فـــإني ... أبداً ما حييـــت منهـــا ملقـــي [٤]

وقد اتخذ أبو العتاهية الحوار وسيلة من وسائل الإفضاء وتصوير قدر المعاناة في حبه ، وانظر إلى بيته الثاني الذي يعد بيت القصيد ، إذ ينفث فيه زفرة من

---

(١) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ. كرم البستاني - ص ٤٧٩ .
(٢) الزهو : الخيلاء والتيه والفخر .
(٣) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ. كرم البستاني ص ٤٩٩ .
(٤) الملقى : الممتحن الذي لا يزال يلقاه مكروه .

الحسرة والألم ، لما يلاقيه من شقوة وعذاب في حبها .

وانظر إليه وهو يتوسل " بالدِّين " الذي هو العروة الوثقى ويتشفع بـــه لـــدى المحبوبة التي لا تلين ولا تصغي لتوسلاته ، فقد صار في حبها نموذجاً لكل حب هائم حزين عاجز عن الوصول .

يقول [١] :

يا عتب سيدتي أمـــا لـــك ديـــن	حتى متى قلبـــي أليـــك رهـــين
وأنا الذلول لكـــل مـــا حملتـــي	وأنا الشـــقي البـــائس المســـكين
وأنا الغداة لكـــل بـــاك مســـعد	ولكل صـــب صـــاحبه وخـــدين
لا بأس إن لذاك عنـــدي راحـــة	للصب أن يلقى الحزين حـــزين
يا عتب أين أفر منـــك أميرتـــي	وعليَّ حصن من هواك حصـــين

وهذا الخطاب يحمل في طياته نفساً بائسة حزينة ، وقلباً هائماً حائراً متخبطاً ، يسعى بكل وسيلة لتحقيق غايته ، نلمس ذلك من خطابه المحبوبة بلفظ " أميرتي " " سيدتي " فقد رضي أن يكون عبداً لمحبوبته ، ونزل بكرامته دركات ليحظـــى بوصالها ولقاءها .

وانظر إليه ثانية وهو يتزلف إليها طالبا وصالها قبل أن يموت ، مقسماً عليها بتلبية رغبة – هي في نظره – أملاً طالما تاقه وتمناه .

يقول [٢] :

بالله يا قرة العيـــون زوريـنـــي	قبل الممـــات و إلا فاســـتزيريني
إني لأعجب من حـــب يقربنـــي	ممن يباعدني عنـــه ويقصـــيني
أمَّا الكثير فما أرجوه منك ولـــو	أطمعتني في قليل كـــان يكفينـــي

وهذه الأبيات بأسلوبها العذب الشيق ومعانيها الرائقة ، لتدل دلالة أكيدة عل

---

(١) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ.كرم البستاني ص ٤٥٨ .

(٢) الأنوار الزاهية – قافية النون .

صدق الرجل في حبه ، فهذا الصمود أمام جمود المحبوبة وصدودها ، وهذه الرغبة الجامحة في رؤيتها قبل الممات ولو مرة لدليل على صدق حبه ، بل لا نبالغ إذا قلنا أن حبه لها كان حباً مرضياً .

ويصور في أسلوب سهل رقيق أثر حبها عليه فيقول [١] :

قل لمن لست أسمي ... بأبي أنت وأمي
بأبي أنت لقد أصـ ... ـبحت من أكبر همي
ولقد قلت لأهلي ... إذ أذاب الحب لحمي
وأرادوا لي طبيباً ... فاكتفوا مني بعلمي
من يكن ما ألـ ... ـقي فإن الحب سقمي
إن روحي ببغدا ... د وفي الكوفة جسمي

وقد اتخذ أبو العتاهية الحوار وسيلة للبوح الشخصي والإفضاء بمكنون النفس فقد صار حبه لها من أكبر همه ، ولشدة همه وانشغاله بهذه المحبوبة انعكس سلباً على جسده ، فقد صار هزيلاً نحيلاً لزيم الفراش .

وقد أدت الاستعارة في البيت الثالث دوراً رائعاً في بلورة الصورة ، إذ جعل الحب مادة حارة قادرة على إذابة اللحم .

ويبدو أن عتبة هذه كانت لعوباً حقاً ، تمنيه الأماني حتى إذا انتشى بحلاوة الوعد وقرب اللقاء خلفته وعدها ، وسحبت البساط من تحت قدميه .

يقول [٢] :

كم من ديون والله يعلمها ... لنا عليها لم تقض إذ وجبت
ما وهبت لي من فضلها عدة ... إلا استردت جميع ما وهبت
فأي خير وأي منفعة ... لذات دل تريق ما حلبت

---

(١) زهر الآداب ص ٢٨ .

(٢) أبو العتاهية أ. احمد برانق القاهرة ١٩٤٧ م ص ٩٧ .

وانظر إلى بيته الأخير الذي يعكس حالة اليأس التي تملكته من جراء مسلك هذه اللعوب ، وأسلوبها في جذب الرجل ثم تراها بغتة – كما يقول الشاعر – " ذات دلٍ تريق ما حلبت "

ومن أروع بل وأبلغ ما جاء في تصوير صبوته وشدة تعلقه بهذه المحبوبة لاشتماله على تخيل جميل . قوله [١] :

ولقد صبوت إليك حتى ... صار من فرط التصابي

يجد الجليس إذا دنا ... ريح التصابي في ثيابي

فلشدة تعلقه بعتبة تفوح ثيابه صبابة جارفة ، ولا شك أن هذه مبالغة صوغ قبولها للنفس مجيئها في معرض الغزل وتصوير هذه العاطفة الجميلة ، كما تدل على براعة الشاعر التصويرية وقدرته على التشخيص .

ويبدو أن عتبة هذه كانت فاتنة حقاً ، حتى أن الخليفة المهدي ضنَّ عليه بها ، وضنت زوجته رائطة كذلك ، ومن بعدهما ضنَّ الرشيد أيضاً ، لذا فحق لهذا الشاعر مرهف الحس ضعيف القوى أن يهيم بها ، بل ويشقى بحبها ، ويقع في المحظور في التعبير عن هذا الجمال الأنثوي الأخاذ .

من ذلك قوله [٢] :

كأن عتبة من حسنها ... دمية قس فتتت قسها

يا رب لو أنسيتها بما في ... جنة الفردوس لم أنسها

ويقول في امتلاكها ناصية قلبه وانشغاله بأمرها أيضاً [٣] :

أما رحمتني يوم ولت فأسرعت ... وقد تركتني واقفاً أتلفت

اقلب طرفي كي أراها فلا أرى ... وأحلب عيني درها وأصوت

---

(١) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٦٩ .

(٢) السابق ص ٢٣٤ .

(٣) السابق ص ١٠٦ .

ومن معانيه الجميلة التي جاءت في معرض تذلُّله قوله مخاطباً عتبة [١] :

بالله قولي إن سألتك واصدقي أوجدت قتلي في الكتاب حلالاً

ويصل به الشوق والهيام حداً يوقعه في السفه والخفة ، اسمعه يقول مخاطباً إياها [٢] :

لما تبديت على بغلة أشرقت الأرض لبرهانك

والله لولا أن أخاف الردى لقلت لبيك وسبحانك

فقد أودى به هذا الحب إلى منتهى الضعف البشري والتسليم لسلطان الهوى ، والذي أخرجه عن اتزانه العقلي ، فلولا خوفه من الله سبحانه وتعالى أن يهلكه بمعاصيه لتبتل إليها تبتل الخاضع الخاشع .

وصور حسنها في موضع آخر ، تصويراً يراد منه التماس العذر له في هذا الحب الجارف ، ويأتي خلاله بمعانٍ طريفة فيقول [٣] :

يا إخوتي إن الهوى قاتلي فيسروا الأكفان من عاجل

ولا تلوموا في اتباع الهوى فإنني في شغل شاغل

عيني على عتبة منهلة بدمعها المنسكب السائل

كأنها من حسنها درة أخرجها اليم إلى الساحل

كأن في فيها وفي طرفها سواحراً أقبلن من بابل

لم يبق مني حبها ما خلا حشاشة في كبد ناحل

يا من رأى قبلي قتيلا بكى من شدة الوجد على القاتل

بسطت كفي نحوكم سائلاً ماذا تردون على السائل

إن لم تنيلو فقولوا له قولاً جميلاً بدل السائل

أو كنتم العام على عسرة منه فمنوه إلى القابل

---

(١) أبو العتاهية جمع شكري فيصل ص ٦٠٤ .

(٢) انظر أسطورة الزهد عند أبي العتاهية د / عبد العزيز الكفروى .

(٣) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٣٨٦ .

ويبدو أن شعره هذا قاله في أول علاقته بعتبة ، لأنه يشم منه رائحة الرغبة في إظهار المقدرة الشعرية في فن الغزل ، وإظهار المقدرة الفنية ومجاراة فرسان الغزل في عصره وقبل عصره .

وانظر إلى بيته الجميل الذي يصور حاله المتقلب بين اليأس والرجاء ، وهو يخاطب المهدي معرضاً بطلبها [١] :

إني لا أيأس منها ثم يطمعني فيها احتقارك للدنيا وما فيها

وأهم ما يوسم شعره في عتبة صدق التجربة ، وشدة العاطفة ، فجل شعره في هذه المحبوبة يتسم بحرارة العاطفة وصدق اللهجة ، وليس أدلَّ على ذلك من صبره على صدها ونأيها .

وقد اتخذ من الضراعة والاستكانة سبيلاً للوصول إلى قلب من يحب ، وقد يكون السر في ميله إلى هذا الاتجاه شعوره بخيبة الأمل وصدود المحبوبة عنه ، بل ومؤازرة أولي الأمر من الخلفاء والولاة لهذه المحبوبة وتشجيعها على الصدود والبعد والنأي عنه ، فكان لابد له من إظهار لوعته وحرقته بهذا الأسلوب البارع ، الذي يناسب حالته وموقف من بيدهم أمرها .

وفي الحقيقة أن الاستكانة والتذلل والتزلف للمحبوبة وسائل لجودة الغزل ، حتى وإن كانت عاطفة الشاعر غير صادقة .

" ولهذا نجد أبا تمام عندما وصى البحتري بما يتبعه في فنون الشعر ، لم يوصه في الغزل بأن يكون صادق التعبير عما يحس به في الحب من سرور وألم في القرب والبعد ، والوصل والهجر ، ولكن وصَّاه بأن يكثر في هذا النسيب من بيان الصبابة وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق ، وكأنه يطلب إليه أن تكون التجربة التي يتخيلها في الحب ، ويعبر عنها في شعره ، تجربة مؤلمة ، لأن مثل هذه التجربة تكون أشد تأثيراً في نفوس سامعي شعره ، فالمهم

---

(١) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ.كرم البستاني – ص ٤٩٠ .

هو التجربة التي يتمثلها الشاعر حقيقة كانت أو متخيلة " . [١]

ولو كانت هذه المحبوبة امرأة عادية من سواد الناس ولم تكن جارية الخليفة ، والمحببة إلى نفسه والمقربة إلى رائطة ، لما مال إليها هذا الميل وما كانت هذه الاستكانة وهذا التزلف ، واكتفى بإظهار حبه ولوعته ، وإنما هي محبوبة غير عادية ، فالهوة بينهما سحيقة ، هو شاعر رقيق الحال ، وهي الحسناء التي ترفل في الدمقس وفي الحرير في قصره الخليفة ، وهي من أقرب جواري الخليفة إلى نفسه ، ولها مكانتها في نفسه وقلبه ولها عزتها ومنعتها التي من خلالها استطاعت أن يكتوي قلب الشاعر بحبها ، حتى تكون ملئ السمع والبصر إن ظلت على هذا الرفض .

ونراه يميل في غزله إلى لغة التخاطب ، وكان الحوار هو الوسيلة الأساسية ليبرز من خلالها عواطفه وانفعالاته وصبابته وموقفها العنيد الرافض له .

ومن شعره في زوجته وهو في سجن الرشيد قوله [٢] :

من لقلب متيم مشتاق ... شفه الشوق وطول الفراق

طال شوقي إلى قعيدة بيتي ... ليت شعري فهل لنا من تلاقي

هي حظي قد اقتصرت عليها ... من ذوات العقود والأطواق

جمع الله عاجلاً بك شملي ... عن قريب وفكني من وثاقي

وهناك بون بعيد وفرق بيِّن بين شعره في عتبة البغدادية ، وشعره في زوجته أم أولاده ، فهذه الأبيات – مع قلتها – تكشف عن حقيقة هامة هي أن شعره في زوجته نلمس فيه مسحة التعقل والرزانة مسحة شغف صب إلى الأمن والاستقرار والحرية في ظل أسرة آمنة مستقرة ، كما نشم منها رائحة الشكوى ،

---

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب أ. احمد بدوي ط نهضة مصر بالفجالة – القاهرة ص ١٤٠ .

(٢) الأنوار الزاهية – قافية القاف .

شكوى من ذل الأسر ومرارة الحبس ، وتوق إلى الحرية طالما عاشها ونعم في ظلها .

وفي الحقيقة إن غزل أبي العتاهية غزل رقيق رائق ، استطاع أن يأخذ بمجامع نفوسنا ، وجعلنا نتعاطف مع هذا الشاعر الصب الهائم بهذه الغانية الحسناء .

سمات شعره في جانبي الزهد والغزل خاصة

الألفاظ والأساليب :

أولاً الألفاظ :

أهم ما يميز الألفاظ عند أبي العتاهية سهولتها وقرب مأخذها واستواؤها ، فالمستقرئ لديوانه لا يقف على لفظة غريبة أو حوشية أو منبهمة على الفهم فيحتاج معها إلى قاموس لغوى أو معجم ألفاظ .

وقد ذكره الجاحظ من جملة المطبوعين على الشعر فقال :

والمطبوعين على الشعر من المولدين بشار العقيلي والسيد الحميري وأبو العتاهية . (١)

و إذا رجعنا إلى الوراء وتذكرنا نشأة الشاعر وثقافته والمعين الذي استقى منه لغته وقربها إلى الإفهام ، فالشاعر كان جراراً وأبوه مولى وضيع المكانة رقيق الحال ، فلم تتح له ظروفه ومكانة أسرته أن ينهل من معين الثقافة الأصيلة حيث الرحلة إلى البادية ، والانقطاع إلى الدرس ، والتحصيل المنظم على أيدي النحاة واللغويين ، والانكباب على دواوين الشعر القديم ، ورواية أشعار المجودين في عصره ، فلم يرو عنه أنه غشي دور العلم ، وتردد على دور الوراقة وحلقات المساجد ، غاية أمره موهبة فطرية حباه الله بها واستعداد خاص ، فالمحيط الذي عاش فيه ، والحياة بما تحويه من رقي حضاري أصقل موهبته وأمده بمعان وأفكار جديدة تساير هذا الرقي الحضاري ، أضف إلى ذلك معايشته العامة ، وأنه – كما عرف عنه – كان يحمل زاملة المخنثين ويتعلم كيادهم تلك هي كانت ثقافته والمعين الذي استقى منه .

---

(١) البيان والتبيين – تحقيق عبد السلام هارون – دار الجيل بيروت ١٩٩٠ م – ج ١ ص ٥٠ .

وقد أشار د. نجيب البهبيتي إلى أثر هذه النشأة في لغته فقال [١] : " إن نشأته بين طبقات الشعب الدنيا ، ووقوفه على أساليب حياتها ، وثبات أمثالها ومعانيها ، ومحاولة محاكاة ذلك كله أثر في لغته وأسلوبه وطريقة أدائه اللغوي ، وأصبحت هذه الثقافة مصدر غناه بالمعاني مما لم يكن يتاح لغيره من الشعراء الذين لم يعيشوا عيشه ولم ينشئوا نشأته ، والذين عاقهم التحصيل المنظم لمعاني الشعر من مصادرها التقليدية عن الاستفادة من تلك الثروة الملقاة بين أيدي العامة " .

وسبب آخر كان وراء سهولة لغته وقرب مأخذها هو موضوع شعره ، فشعره في معظمه منصب على غرض الزهد ، والزهد أساساً قريب من نفوس العامة . فالسواد الأعظم من الناس يستهويهم هذا اللون من الشعر ، وهم أكثر إقبالاً عليه ، فوجد هذا الشعر سوقاً رائجة لدى جماهير الشعب منه عند الخاصة وعلية القوم ، لأن خاصة القوم والسراة منهم يكرهون – غالبا – من ينغص عليهم عيشهم ويقطع عليهم لذتهم بذكر الموت وبيان عاقبة الدنيا ، والتزهيد فيها .

سبب ثالث وراء اتجاهه بشعره ولغته هذه الوجهة هو رغبته في صيرورة شعره وانتشاره و إذاعته وحفظه وتداوله بين الخاصة والعامة وقد تحقق له ما أراد ، فها هو الخليفة العباسي المعتصم بالله يتمثل عند موته بقول أبي العتاهية [٢] :

الموت بين الخلق مشترك ... لا سوقة يبقي ولا ملك
ما ضرُّ أصحاب القليل ، وما ... أغنى عن الأملاك ما ملكوا

وهاهو ملك الروم يعجب بشعر أبي العتاهية ، ويأمر أن يكتب بيتان من شعره على أبواب مجالسه وباب مدينته وهما :

ما اختلف الليل والنهار ولا ... دارت نجوم السماء في الفلك

---

(١) تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري دار الثقافة المغربية ١٩٨١ م ص ٣٩٨ .

(٢) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٣١٠ .

إلا لنقل السلطان عن ملك قد انقضى ملكه إلى ملك

فقد حدَّث الرياشي قال : قدم رسول ملك الروم إلى الرشيد ، فسأل عن أبي العتاهية وأنشده شيئا من شعره ، وكان يحسن العربية ، فمضى إلى ملك الروم وذكره له فكتب ملك الروم إليه ورد رسوله يسأل الرشيد أن يوجهه بأبي العتاهية ويأخذ منه رهائن من أراد ، وألحَّ في ذلك فكلم الرشيد أبا العتاهية في ذلك فاستعفا منه وأباه [١] .

ومما يروى في صيرورة شعره أيضاً ما أخبر به المسعودي من أن عابداً مر براهب في صومعة فقال له : عظني . فقال : أعظك وشاعركم الزاهد قريب العهد بكم ، فاتعظ بقول أبي العتاهية حيث يقول [٢] :

ألا كل مولود فللموت يولد ولست أرى حيا لشيء يخلد
تجرد من الدنيا فإنك إنما سقطت إلى الدنيا ، وأنت مجرد
وأفضل شيء نلت منها فإنه متاع ، قليل يضمحل وينفذ
وكم من عزيز أذهب الدهر عزه فأصبح محروماً ، وقد كان يحسد
فلا تحمد الدنيا ولكن ذمها وما بال شيء ذمه الله يحمد

وقد كان أبو العتاهية يقف على هذه الخاصية من لغته وألفاظه فقد أخذ عليه سلم الخاسر هذه السهولة التي تصل إلى حد الركاكة أحياناً فرد عليه بقوله : والله ما يرغبني فيها إلا الذي زهدَّك فيها ، ونص الرواية كما جاءت في الأغاني [٣] :

" قال سلم الخاسر : صار إليَّ أبو العتاهية فقال : جئتك زائراً ، فقلت : مقبول منك ومشكور أنت عليه ، فأقم ، فقال : إن هذا مما يشتد عليّ . فقلت : ولم يشتد عليك ما تسهل على أهل الأدب ، فقال: لمعرفتي بضيق صدرك . فقلت له وأنا

---

(١) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٣١٦ .
(٢) السابق ص ١٢٨ .
(٣) الأغاني ج ٤ ص ٩٤ ، ٩٥ .

أضحك وأعجب من مكابرته " رمتني بدائها وانسلت" ، فقال : دعْني من هذا واستمع مني أبياتاً . فقلت هات فأنشدني :

نغص الموت كل لذة عيش ... يا لقومي للموت ما أوحاه
عجبا أنه إذا مات ميت ... صدعنه حبيبه وجفاه
حيثما وجه امرؤ ليفوت الـ ... ـموت فالموت واقف بحذاه
إنما الشيب لابن آدم ناع ... قام في عارضيه ثم نعاه
متى تمنى المنى فأغرق فيها ... مات من قبل أن ينال مناه
ما أذل المقل في أعين النا ... س لإقلاله وما أقساه
إنما تنظر العيون من النا ... س إلى من ترجوه أو تخشاه

ثم قال لي : كيف رأيتها ؟ فقلت : لقد جودتها لو لم تكن ألفاظها سوقية . فقال : والله ما يرغبني فيها إلا الذي زهدك فيها .

وقال صاحب الأغاني أيضا [١] :

حدثني علي بن مهدي قال حدثني ابن الأبيض قال : أتيت أبا العتاهية فقلت له : إني رجل أقول الشعر في الزهد ، ولي فيه أشعار كثيرة ، وهو مذهب استحسنه لأني أرجو ألا آثم فيه ، وسمعت شعرك في هذا المعنى ، فأحببت أن استزيد منه ، فأحب أن تنشدني من جيد ما قلت . فقال : اعلم أن ما قلته رديء ، قلت وكيف ؟ قال لأن الشعر ينبغي أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين ، أو مثل شعر بشار وابن هرمة فإن لم يكن كذلك فالصواب لقائله أن تكون ألفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعري ، ولا سيما الأشعار التي في الزهد ، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رواة الشعر ، ولا طلاب الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد ، وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الرياء والعامة ، وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه فقلت صدقت

---

(١) الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني ط دار الكتب ج ٤ ص ٤٥ .

ثم أنشدني قصيدته :

لدوا للموت وابنوا للخراب ... فكلكم يصير إلى تباب
ألا يا موت لم أر منك بدا ... أتيت وما تحيف وما تحابي
كأنك قد هجمت على مشيبي ... كما هجم المشيب على شبابي

قال : فصرت إلى أبي نواس فأعلمته ما دار بيننا ، فقال : والله ما أحسب في شعره مثل ما أنشدك بيتا آخر ، فصرت إليه فأخبرته بقول أبي نواس ، فأنشدني قصيدته التي يقول فيها :

طول التعاشر بين الناس مملول ... ما لابن آدم إن فتشت معقول
يا راعي الشاء لا تغفل رعايتها ... فأنت عن كل ما استرعيت مسئول
إني لفي منزل مازلت أعمره ... علي يقين بأني عنه منقول
وليس من موضع يأتيه ذو نفس ... إلا وللموت سيف فيه مسلول
لم يشغل الموت عنا منذ أعد لنا ... وكلنا عنه باللذات مشغول
ومن يمت فهو مقطوع ومجتنب ... والحي ما عاش مغشي وموصول
كل ما بدالك فالآكال فانية ... وكل ذي أكل لابد مأكول

قال ثم أنشدني عدة قصائد ما هي بدون هذه ، فصرت إلى أبي نواس فأخبرته فتغير لونه وقال : لم خبرته بما قلت قد والله أجاد ولم يقل فيه سواء .

وهذه الرواية توضح وقوف أبي العتاهية على مسالك الشعراء وطرائقهم في التعبير ، وما يستجاد من الشعر وما يستهجن .

كما توضح أن ما يعجب الشاعر وما يخطه لنفسه من طريق قد يخالف النموذج الأمثل من القريض ومع ذلك يرتضيه لنفسه ، ويجعله أسلوباً يعرف به .

كما توضح أن بعض الأغراض تتطلب جزالة اللفظ وقوة العبارة وبعضها لا يتطلب ذلك .

ولم يخف على نقدة الشعر هذا المسلك اللغوي من الشاعر . فهذا ابن رشيق يقول في معرض حديثه عن مذاهب الشعراء في استعمال اللغة " ومنهم من ذهب إلى سهولة اللفظ واغتفر فيها الركاكة واللين المفرط كأبي العتاهية والعباس بن الأحنف ومن تابعهما " (١) .

ثانياً الأساليب :

الأسلوب هو طريقة ما يسلكها الشاعر يعبر خلالها عن عواطفه وأحاسيسه ، والمعاني والأفكار التي تعن له وتختلج في صدره ، ويسهم في تكوين الأسلوب عوامل عديدة من بيئة ، وثقافة وميول ذاتية ومواهب فطرية .

فالأسلوب يدل دلالة واضحة على شخصية صاحبه وتكوينه الذاتي ، لذا وجدنا من النقاد من يصفه " بأنه الرجل " .

وأسلوب أبي العتاهية في الزهد والغزل – خاصة – سهل واضح لا غموض فيه ولا خفاء ولا إبهام ولا إيهام يناسب تمام المناسبة حال المخاطب .

فنراه يتجه بشعره الزهدي – كما قلنا – إلى عامة الشعب وسوادهم ومحبي هذا الفن ، وهؤلاء يستحب معهم وضوح الأسلوب وسهولته ويسره ، أضف إلى ذلك أن طبيعة الموضوع نفسه تتطلب السهولة والوضوح لأن الشاعر يهدف بشعره التأثير في المتلقي واعتقاد مذهبه في ضميره ويده ، وهذا يتطلب الوضوح والسهولة .

وأهم دلائل السهولة عنده إكثاره من الأساليب الطلبية والصيغ الإنشائية كثرة تصل إلى حد الظاهرة التعبيرية ، فنراه يكثر من صيغ الأمر والنهي والدعاء ، والنداء ، والاستفهام ، والتعجب .

والنماذج على ذلك أكثر من أن يحصيها العد ، ويكفي القارئ صفحات قليلة من ديوانه ليقف على هذه الخاصية بسهولة ويسر .

---

(١) انظر العمدة ط دار الجيل بيروت ج٢ .

وقد لفت إكثار أبي العتاهية من الاستفهام خاصة بلفظ " أين " المؤرخ كارل بروكلمان فنراه يقول [١] :

كان أبو العتاهية قلما يذهب في شعره مذاهب القدماء وهو يولع كثيراً بافتتاح أبياته بلفظ " أين " ، ويتخذ أبو العتاهية هذا الاستفهام كأداة تقرير لهذا المصير المحتوم ، الذي ينتظر البشر جميعاً من خلال تعداد ممالك بائدة ، وجبابرة أفناهم الموت وأخذهم الله من حيث لم يحتسبوا .

وميل أبي العتاهية إلى الخطابية في شعره مال به إلى الوضوح والإبانة ، وهذا الوضوح جعل شعره الزهدي في متناول من ليست لديه ثقافة ، وغرض مثل الزهد يتطلب هذا الوضوح حتى يحقق الغاية المنشودة منه ، وهي التداول والتأثير والصيرورة والحفظ ، فهذه غاية رمى إليها أبو العتاهية ، ولا شك في أنها أتت أكلها وأثمرت الثمرة المرجوة منها ، فالقاصي والداني والخاص والعام والأمي والمثقف ، يحفظون الكثير من شعره ، ولا يغيب عنا وصية ملك الروم بأن يكتب على باب مملكته وعلى أبواب مجالسه أبياتاً من شعره .

ولأبي العتاهية ولع شديد بالتصريع ، ولا شك أن التصريع يحدث لوناً من التناغم الصوتي والنسق الموسيقي ، فمطلع القصيدة أول ما يقرع الأذن ، وأول ما يتلقفه السامع ، فإذا ما تلمس له الشاعر الأداء الجيد والموسيقى الجاذبة كان ذلك داعيا للمتابعة .

ومن التصريع قوله [٢] :

حيل البلى تأتي على المحتال ومساكن الدنيا فهن بوال

---

(١) تاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان – ترجمة – عبد الحليم النجار – دار المعارف الثالثة ج ٢ ص ٣٥ .

(٢) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٣٢٩ .

وقوله [١] :

أصبحت مغلوبا على عقلي لا يستوي قولي مع فعلي

وقوله [٢] :

إن قدر الله أمراً كان مفعولاً وكيف نجهل أمراً ليس مجهولاً

وقوله [٣] :

سهوت وغرني أملي وقد قصرت في عملي

وانظر إن شئت على سبيل المثال لا الحصر ص ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٤ من الديوان - تحقيق الأستاذ كرم البستاني – بيروت .

ومما يتعلق بالأسلوب عند أبي العتاهية ، ميله إلى المطالع ذات النبرة العالية التي تقرع الأذن ، وهذا الميل له دلالته القوية على مسلكه الزهدي ونفسيته أيضاً .

انظر إليه يقول [٤] :

لدوا للموت وابنوه للخراب فكلكم يصير إلى تباب

لمن نبني ونحن إلى تراب نصير كما خلقنا من تراب

وقوله [٥] :

لن تقوم الدنيا بمر الأهلة فاسل عنها فإنها مضمحلة

---

(١) السابق ص ٣٣٣ .

(٢) السابق ص ٣٣٤ .

(٣) السابق ص ٣٣٨ .

(٤) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٤٦ .

(٥) السابق ص ٣٧٣ .

وقوله [١] :

مـــا للمقـــابر لا تجيـــب ... ب إذا دعـــاهن الكئيـــب

وقوله [٢] :

ســـبحان عـــلاَّم الغيـــوب ... عجبـــاً لتصـــريف الخطـــوب

وقوله [٣] :

أيـــن المفـــر مـــن القضـــا ... ء مشـــــرقا ومغربـــــا

وقوله [٤] :

لـم لا نبـادر مـا نـراه يفـوت ... إذ نحـن نعلـم أننـا سـنموت

وقوله [٥] :

أليس قريبا كـل مـا هـو آت ؟ ... فمـــالي وللشـــك والشـــبهات

وقوله [٦] :

كل امـرئ فكمـا يـدين يـدان ... سبحان من لم يخل منـه مكـان

وأمر آخر يتعلق بمقدمات قصائد أبي العتاهية ، وهـو تخلصـه فيهـا مـن المقدمات التقليدية سواء طللية أو غزلية ، فنراه يدخل في موضوعه مباشرة ، وهذه المباشرة لها دلالة أكيدة على مرمى الشاعر من شعره ، وعلى نفسيته أيضاً ، فهي تدل على تشبع فكر الشاعر ونفسه بالأفكار التي يعالجها ، وطغيانها على كل ما عداها ، لذا نراه لا يمهد لذلك بمقدمة طللية أو غزلية أو غيرهما .

ومما يتعلق بالأسلوب عنده "التكرار" والتكرار هو إعادة لفظة بعينها أو أكثر

---

(١) السابق ص ٤٨ .

(٢) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٥٦ .

(٣) السابق ص ٥٨ .

(٤) السابق ص ٧٠ .

(٥) السابق ص ٨٣ .

(٦) السابق ص ٤١٩ .

في البيت الواحد أو في عدة أبيات في القصيدة .

وغالباً ما يقع التكرار كما يقول صاحب العمدة في الألفاظ دون المعاني ، وهو في المعاني دون الألفاظ أقل ، فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعاً فذلك الخزلان بعينه ، ويعد التكرار في شعر أبي العتاهية من أبرز ظواهره الأسلوبية .

وقد أرجع د/ أنيس المقدسي التكرار في شعر أبي العتاهية إلى سرعة الخاطر وتزاحم الألفاظ حول المعنى الواحد ، وعدم الاهتمام بطرح الغث منها [١] .

ويضاف إلى ما ذكره د.أنيس الطبيعة المواتية لدى الشاعر ، والحالة النفسية المضطربة المشحوذة بأفكار ومعان بعينها تلح على الشاعر من آن لآخر ، فالشاعر لا يعنيه مسألة التكرار بقدر ما يعنيه إشباع حاجة النفس التي لا تتحقق إلا به .

أضف إلى ما سبق ، إيمانه بمسلكه الزهدي ، وأنه لا سبيل إلى الحياة الآمنة المطمئنة في الدنيا والآخرة إلا بتمسك الإنسان بهذا المسلك ، لذا نراه كلما أخذته الدنيا وجذبته جذب الممتح حاول دفعها ، وكلما حاولت نفسه الجموح غوايته أعاد عليها ما كان قد ابتدأه قبل .

ولا نغفل سن الشاعر الذي اتجه فيه إلى الزهد ، فقد اتجه إلى هذا المسلك الزهدي بعد أن تخطى عقده الرابع ، وظل على هذا المسلك إلى أن وافته منيته ، بعد أن تخطى عقده الثامن ، فرجل ظل أكثر من ثلاثين عاما يجاهد نفسه ، ويدعو غيره إلى عدم الانسياق وراء ظل الدنيا الزائل ، والإنسان في هذه السن خاصة بعد تجاوزه الستين يعتريه النسيان وقلة التذكر ، وعهدي بالشاعر حينئذ حين يقول الشعر في الدنيا أو في الموت أو في الحشر كأنه يقول بادئ ذي بدء ، فلا تعينه الذاكرة على التذكر إن كان قال الكلام قبل أم لا .

وهناك نقطة هامة يجب أن نعيها ، ألا وهي اعتماد ذيوع شعره وانتشاره –

---

(١) أمراء الشعر في العصر الحديث ، دار العلم ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

بالدرجة الأولى – على الرواية ، فالشاعر لم يعنى بتدوين شعره قدر عنايته بروايته وإنشاده رغبة في صيرورته وحفظه ، لذا نراه يردد الفكرة الواحدة في أكثر من مجلس ، وبأكثر من طريقة أداء وهناك دلالات عدة للتكرار عنده وأهمها :

أ- الاهتمام بشأن المكرر والتأكيد عليه والإشادة بذكره ، مثل قوله في الحث على الصدق [١] :

وإذا الأمور تزاوجت فالصبر أكرمها نتاجا
والصدق يعقد فوق رأس حليفه للبر تاجا
والصدق يثقب زنده في كل ناحية سراجا

ب – حمل المتلقي على الإقرار بما يقول من ذلك قوله [٢] :

إلى الله فارغب لا إلى ذا ولا ذاكا فإنك عبد الله والله قواكا

فتكرار الشاعر للفظ الجلالة مبتغاه حمل الإنسان على الركون إلى الله ، والعودة إلى رحابه ، وإفراده وحده بالعبودية من ذلك قوله أيضاً [٣] :

والله أكرم من رجوت نواله والله أعظم من ينيل نوالا
ملك تواضعت الملوك لعزه وجلاله سبحانه وتعالى

ج – وقد يلجأ إلى التكرار كضرورة أسلوبية يوضح خلالها ما يعن له من معان يقول [٤] :

أتدري من أخوك حقا أخوك بصبره لك واحتماله
أخوك المبتغي لك كل خير وصاحبك المداوم في وصاله

---

(١) الديوان ص ٣١٥ .
(٢) السابق ص ٣٦٦ .
(٣) السابق ص ٣٦٩ .
(٤) السابق ص ٣٦٦ .

د – ويأتي ومراده منه التلذذ والاستعذاب ، كما هو الشأن في تكرار لفظ الجلالة في نحو قوله [١] :

أيـــا واهـــا لـــذكر الله يـــا واهـــا لـــه واهـــا
لقـــد طيـــب ذكـــر الله بالتســـبيح أفواهـــا

فقد كرر الشاعر لفظ الجلالة "الله " تلذذاً بذكره وجمال الأثر المنبعث من تكراره .

هـ – وقد يأتي التكرار ومراده منه بيان فضل الله تعالى على عبـاده ، وعظيم رحمته وعفوه يقول [٢] :

منـع الجديـدان البقـاء وأبلينـا أمما خلون من القـرون قـديما
وعصيت ربك يا ابن آدم جاهـداً فوجدت ربك إذ عصيت حليمـاً
وسألت ربك يا ابـن آدم رغبـة فوجدت ربك إذ دعوت رحيمـاً

ومثل قوله [٣] :

استغن بالله عمن كنت تسأله فالله أفضل مسئول لسؤاله

فتكرار لفظ الجلالة للتأكيد على وجوب إفراده بالعبودية وحسـن التوكـل عليه .

و– وقد يأتي التكرار عنده تعظيماً لشأن المكرر ودعوة إلى التمسك به مثـل قوله في الدين الحنيف [٤] :

طلبتك يا دنيا فأعذرت في الطلـب فما نلت إلا الهم والغم والنصـب
فلما بدا لي أننـي لسـت واصـلاً إلى لـذة إلا بأضـعافها تعـب
وأسرعت في ديني ولم أقضي بغيتي هربت بديني منك إن نفع الهرب

---

(١) السابق ص ٤٥٩ .
(٢) السابق ص ٣٩٠ .
(٣) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٣٦٩ .
(٤) السابق ص ٤٩ .

ز- ويأتي ومراده منه الازدراء والتهكم يقول [١] :

وللـــدنيا دوائـــر دائـــرات ... لتـــذهب بـــالعزيز وبالـــذليل
وللـــدنيا يـــد تهـــب المنايـــا ... وتستلب الخليـــل مـــن الخليـــل

ح- وقد يلجأ الشاعر إلى التكرار ليعبر خلاله عما في بؤرة شعوره مـــن أفكار ، ويتخذه نقطة انطلاق وأداة من أدوات التعبير عن خبايا النفس مـــن مثل قوله [٢] :

ولقد رأيـــت مســـاكناً مســـلوبة ... ســـكانها ومصـــانعاً وظـــلالا
ولقد رأيـــت مســـلطا ومملكـــا ... ومفوها قـــد قيـــل قـــال وقـــالا
ولقد رأيت من استطاع بجمعـــه ... وبنـــي فشـــيد قصـــره وأطـــالا
ولقد رأيت الدهر كيف يبيـــدهم ... شـــيبا وكيـــف يبيـــدهم أطفـــالا
ولقد رأيت الموت يسرع فـــيهم ... حقـــا يمينـــا مـــرة وشـــمالا

ط- وكثيراً ما يتخذ التكرار وسيلة من وسائل التأثير وجذب المتلقي ، لمـــا يلقيه على مسامعه محاولة منه في إقناعه بمعتقده ورؤيته في الحياة والأحياء ، فيقول [٣] :

أأخـــيَّ إن المـــال إن قدمتـــه ... لك ليس إن خلفتـــه لـــك مـــالا
أأخيَّ شأنك بالكفاف وخل مـــن ... أثرى ونافس في الحطام وغـــالي
أأخيَّ إن المـــرء حيـــث فعالـــه ... فانظر لأحسن من يكـــون فعـــالا
أأخيَّ من عشق الرئاسة خفت أن ... يطغى ويحدث بدعـــة وضـــلالا
أأخـــيَّ إن أمامنـــا كربـــاً لهـــا ... شـــغب وإن أمامنـــا أهـــوالا
أأخـــيَّ إن الـــدار مـــدبرة وإن ... كنـــا نـــرى إدبارهـــا إقبـــالا
أأخيَّ لا تجعل عليـــك لطالـــب ... يتتبـــع العثـــرات منـــك مقـــالا

---

(١) السابق ص ٣٣٥ .
(٢) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٣٤٧ .
(٣) السابق ص ٣٤٨ .

أأخيَّ إن الخلــق فــي طبقاتــه يمسي ويصــبح للإلــه عيــالا

فتكرار الشاعر لكلمة " أخي " يسفر عن مدى حدبه وشفقته على بني جنسه ، ومدى اهتمامه بشأنهم .

ج – وقد يأتي التكرار في معرض الزجر والتخويف ، والحث علــى الطاعــة والتحذير من الانسياق وراء الملذات والشهوات التي تــودي بالإنســان اســمعه يخاطب نفسه قائلا [١] :

يا نفس ما أوضح قصد الســبيل خلقت يــا نفــس لأمــر جليــل

يا نفس ما أقــرب منــا البلــى أنا الذي لا نفس لي عــن قليــل

ومن ذلك ما جاء في ديوانه فــي خطــاب الــنفس أيضــاً فــي ص ٣٩١ ، ص ٤٤٣ . ط بيروت جمع الأستاذ كرم البستاني .

د – وقد يأتي التكرار في موضع إظهار التفجع والتحسر والتأسف على الماضي الذي ذهب بغير رجعة فيقول [٢] :

لأبكين على نفســي وحــق ليــه يا عين لا تبخلي عنــي بعبرتيــه

لأبكــين لفقــدان الشــباب وقــد نادى المشيب عن الدنيا برحلتيــه

لأبكين علــى نفســي فتســعدني عــين مؤرقــة تبكــي لفرقتيــه

لأبكــين ، ويبكينــي ذوو ثقتــي حتى الممــات إخلائــي وإخوتيــه

يا نفس ضيعت أيام الشباب وهــذا الشيب فاعتبري في الشيب حسرتيه

يا نفس ويحك مــا الــدنيا بباقيــة فشمري واجعلي في الموت فكرتيه

وليس تحت كل تكرار عنده كثير معنى فقد يــأتي أحيانــاً غثــاً بــارداً ســمجاً كقوله[٣] :

أأيتها المقابر فيك من كنا ننازله

---

(١) الديوان ص ٣٦٠ .

(٢) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٤٨٣ .

(٣) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٤٨٣ .

ومن كنا نتاجره ومن كنا نعامله
ومن كنا نفاخره ومن كنا نطاوله
ومن كنا نشاربه ومن كنا نؤاكله
ومن كنا نرافقه ومن كنا ننازله

وقد أورد المرزباني بعض ما يعيبونه من شعره كقوله في عتبة [١] :

ألا عتبة الساعة أموت الساعة الساعة

وقوله في رثاء سعيد بن وهب [٢] :

مات والله سعيد بن وهب رحم الله سعيد بن وهب
يا أبا عثمان أبكيت عيني يا أبا عثمان أوجعت قلبي

ويميل أبو العتاهية كثيراً إلى الحوار :

والحوار نمط من أنماط التعبير ، وأداة توصيل فكرة معينة تخالف طريقة السرد المعهودة . وتكمن أهمية الحوار فى كونه أداة فاعلة لتحليل المواقف بين الأشخاص ، بل قد يكون الحوار هو الوسيلة التي لا يصلح سواها ، إذ يعطي فسحة للأخذ والرد ، فيحظى القارئ بصورة مكتملة عن الفكرة التي تختلج فى الشاعر وتملك عليه أقطاب نفسه ، فيخرج بخبر مكتمل – غالبا – أو بقصة ذات مقدمة ووسط ونهاية .

ولعل تبادل الحديث وتحاور الأشخاص هو السر في جذب المتلقي وحمله على المتابعة،وتقصي الحقائق ، وتتبع الأخبار حتى النهاية ، إذ يضفي على الحوادث روح الواقعية والحياة ، ويجعلنا نتمثلها وكأنها حية مشاهدة ، " إذ ينزع فيه من أسلوب المتكلم المباشرأي من الصوت الواحد إلى التعبيرعن صوتين متقابلين" [٣]

---

(١) الموشح ص ٢٥٩ ، ٢٦١ .

(٢) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٣٦٥ .

(٣) الحوار في القصيدة العربية إلى نهاية العصر الأموي – د / سيد عمارة – مطبعة التركي – طنطا – المقدمة .

وقد يأخذ الحوار طابع المواجهة فيتحدى كل طرف صاحبه ويستفز قواه فتتعارض الإرادات ، وتتصارع الأفكار ، أو يكمل أحد المتحاورين الفكرة التي يطرحها الآخر ، فتظهر الشخصيات على حقيقتها ، ويتضح مسلكها وتصرفها ، لأن الحوار يكشف عن الكثير من الجوانب النفسية لأفراده ، مهما تنوعت موضوعاته وتعددت شخصياته .

وقد استعان أبو العتاهية بالحوار ليطرح خلاله العديد من الأفكار ، ويعبر عن كوامن نفسه .

فتراه تارة يتحاور مع نفسه الأمّارة موبخاً إياها على التقاعس والتقصير عن أداء ما ينبغي فعله .

يقول [١] :

يا نفس ضيعت أيام الشباب وهذا	الشيب فاعتبري في الشيب صحبتيه
يا نفس ويحك ما الدنيا بباقية	فشمري واجعلي في الموت فكرتيه
لئن ركنت إلى الدنيا وزينتها	لأخرجن من الدنيا بخسرتيه
أشكو إلى الله تضييقي ومسكنتي	أشكو إلى الله تقصيري وقسوتيه
والله والله ربي المستغاث به	والله ربي به حولي وقوتيه

وانظر إليه وهو يعقد حوارا طريفا مبعثه انشغاله بالموقف والحساب يقول [٢] :

بكت عيني على ذنبي	وما لاقيت من كربي
فيا ذلي ويا خجلي	إذا ما قال لي ربي
أما استحييت تعصيني	ولا تخشي من العتب
وتخفي الذنب من خلقي	وتأبي في الهوى قربي

---

(١) الأنوار الزاهية ص ٣٠٤ .

(٢) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٣٩ .

فتـــب ممـــا جنيـــت عســـى تعـــود إلـــى رضـــى الـــربُّ

فقد تخيل الشاعر وقوفه بين يدي الخالق جل وعلا ، وأن الله تعالى سائله عما جنت يداه .

ونراه يخاطب نفسه مذكراً إياها بالحقيقة التي لا مراء فيها حتـــى تجـــدَّ فـــي اكتساب الخيرات ، فالواقع يؤكد نفاذ سهم الموت في الأحياء و إلا فأين مضـــي الأولون وأصول الرجل من آباء وأجداد إلى أبينا آدم عليه السلام .

يقول [١] :

يا نفس أين أبي وأين أبـــو أبـــي وأبوه عدى لا أبا لك واحســـبي

عدي فإني قد نظـــرت فلـــم أجـــد بيني وبـــين أبيـــك آدم مـــن أب

أفأنت تـــرجين الســـلامة بعـــدهم هلا هديت السمت وجه المطلـــب

قدمات ما بين الجنين إلى الرضيـــ ع إلى الفطيم إلى الكبير الأشيب

فإلى متـــى هـــذا أرانـــي لاعبـــا وأرى المنية إن أتت لـــم تلعـــب

ويقول في حوار موجز [٢] :

أقول لنفسي إن شكت ضيق نفسها كأني بها في القبر إذا ضاق بيتها

ويخاطب الموتى مظهراً شدة جزعه وفجيعته على أصدقائه وأحبته ، الـــذين أخذهم الموت فحق له النحيب والعويل ، لأنه أصـــبح بعـــدهم وحيـــداً يشـــعر بالاغتراب بين أناس مجتمعه فيقول [٣] :

عولت ، ولكن ما يرد لي الجـــزع وأعولت لو أغنى العويل ولو نفـــع

أيا سكاني الأجداث هل لي إلـــيكم على قربكم مني مدى الدهر مطلع

فو الله ما أبقى لى الـــدهر مـــنكم حبيباً ولا زخرا لعمـــري ولا ودع

فإيـــاكم أبكـــي بعـــين ســـخينة وإيـــاكم أرثـــي وإيـــاكم أدع

---

(١) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٤٥ .

(٢) السابق ص ١٠١ .

(٣) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٢٦٣ .

أيا دهر قد قللتني بعد كثرة وأوحشتني من بعد أنس ومجتمع

ومن المقرر أن أبا العتاهية يفزع إلى خطاب الموتى وساكني الأجداث حينما ينتابه شعور بالوحشة والوحدة ، ولا عجب فالرجل لين الطبع دمث الخلق ، وكانت حياته الاجتماعية قبل مسلكه الزهدي يملؤها اللهو والسمر والأنس بالأصحاب والخلان ، أما وقد عَمَّرَ طويلا ومات قبله العديد من الأصحاب والأنداد وتبدل حاله وأصبح يشعر بالوحشة والوحدة والاغتراب.كما قال هو [١] :

إذا مضى القرن الذي أنت فيهم وخلفت في قرن فأنت غريب

لذا نراه كثيراً ما يهرع إلى الشعر وإلى أهل القبور فهم أصحابه الذين حال بينه وبينهم الموت .

ويقرر حقيقة الموت عن طريق الحوار فيقول [٢] :

ولقد رأيت من استطاع بجمعه وبنى فشيد قصره وأطالا
ولقد رأيت الدهر كيف يبيدهم شيبا وكيف يبيدهم أطفالا
ولقد رأيت الموت يسرع فيهم حقاً يميناً مرة وشمالاً
فسل الحوادث لا أبالك عنهم وسل القبور وأحفهن سؤالاً
فلتخبرنك أنهم خلقوا لما خلقوا له فمضوا له أرسالا
ولقل ما تصفوا الحياة لأهلها حتى تبدل عنهم إبدالا

ويستغل الحوار لبيان مصير الإنسان ومآله ، فسوف يصير من جنس ما خلق منه ، لذا فحرى بالعظماء والملوك ألاَّ يتعاظموا إذ أنهم سيصيرون رمادا . يقول [٣] :

أهل القبور عليكم مني السلام إني أكلمكم وليس بكم كلام
لا تحسبوا أن الأحبة لم يسغ من بعدكم لهم الشراب ولا الطعام

---

(١) السابق ص ٣٤ .

(٢) السابق ص ٣٤٧ .

(٣) السابق ص ٣٨٨ .

كلا لقد رفضـــوكم ، واســتبدلوا ... بكم وفرق ذات بيــنكم الحمــام
والخلق كلهم كذلك وكــل مــن ... قد مات ليس له على حي زمــام
ساءلت أجداث الملوك فأخبرتــ ... ني أنهم فــيهن أعضــاء وهــام

ويخاطب أهل القبور مظهراً فلسفته في الحياة والموت فيقول [١] :

ذوي الود من أهل القبور علــيكم ... سلام ألا من دعــوة تســمعونها
سكنتم ظهور الأرض حينا بنضرة ... فما لبثت حتى ســكنتم بطونهــا
وكنتم أناســا مثلنــا فــي ســبيلنا ... تضنون بالــدنيا وتستحســنونها
ومازالــت الــدنيا محــل ترحــل ... تجوس المنايا سهلها وحزونهــا
وقد كــان للــدنيا قــرون كثيــرة ... ولكن ريب الدهر أفنى قرونهــا
وللناس آجال قصــار ستنقضــي ... وللنـــاس أرزاق ســـيكتملونها

ويخاطب أهل القبور مبينا خواطره نحوهم فيقول [٢] :

يا معشر الأموات يا ضــيفان تــر ... ب الأرض كيف وجدتم طعم الثرى
أهل القبور محى التراب وجــوههم ... أهل القبور تغيــرت تلــك الحلــى
أهل القبــور كفــى بنــأي ديــاركم ... إن الديار بكــم لشــاحطة النــوى
أهــل القبــور لا تواصــل بيــنكم ... من مات أصبح حبله رث القــوى
كم من أخ لــي قــد وقفــت بقبــره ... فدعوتـــه ، لله درك مـــن فتـــى
أأخــيَّ لــم يقــك المنيــة إذا أتــت ... ما كان أطعمك الطبيب وما ســقى
أأخيَّ لم تغــن التمــائم عنــك مــا ... قد كنت أحذره عليــك ولا الرقــى
أأخيَّ كيف وجدت مس خشونة الـــ ... ـمأوى وكيف وجدت ضيق المتكــا
قد كنت أفرق مــن فراقــك ســالما ... فأجل منه فــراق دائــرة الــردى
فاليوم حق لــي التوجــع إذ جــرى ... حكم الإله عليَّ فيــك بمــا جــرى

---

(١) السابق ص ٤٥١ .
(٢) السابق ص ٢٨ .

يبكيك قلبي بعد دمعي حسرة وتقطعا منه عليك إذا بكى
وإذا ذكرتك يا أخي تقطعت كبدي فأقلقت الجوانح والحشا

وقد يأتي الحوار عنده موجزاً مقتضباً لا يتعدى البيت أو البيتين . مثل قوله [١] :

مالي مررت على القبور مسلماً قبر الحبيب فلم يرد جوابي
لو كان ينطق بالجواب لقال لي أكل التراب محاسني وشبابي

ويقول في موضع آخر مسلطاً حواره على أجداث المترفين والمنعمين في الدنيا [٢] :

إني سألت القبر ما فعلت بعدي وجوه فيك منعفرة
فأجابني صيرت ريحهم تؤذيك بعد روائح عطرة
وأكلت أجسادا منعمة كان النعيم يهزها نضرة
لم أبق غير جماجم عريت بيض تلوح وأعظم نخره

ولعل نقمة أبي العتاهية على الأغنياء والملوك وذوي السلطة هي التي بعثت في نفسه ميل إلى التشفي منهم وتنغيص عيشهم وهدم لذتهم بذكر الموت والمصير ، كما انتقموا منه من قبل وحرموه الهناءة وراحة البال بجمع شمله بمن أحب ثم سجنوه وأفردوه وأبعدوه عن الأهل والصحب والولد .

ومن حواراته الطريفة حوار نسجه خياله على لسان من وافته منيته ، فنراه يصوِّر قرب المحيا من الممات ، ومدى نسيان الأهل ميتهم بمجرد دفنه وموارته فيقول [٣] :

رب مذكور لقوم غاب عنهم فنسوه
وإذا أفنى سنيه فه المرء أفنته سنوه

---

(١) السابق ص ٣٩ .
(٢) السابق ص ٢٠٤ .
(٣) السابق ص ٤٧٢ .

وكـــأن بـــالمرء قـــد يبـــ ... كـــــي عليـــــه أقربـــــوه
وكـــأن القـــوم قـــد قـــا ... مـــــوا فقـــالوا أدركـــوه
ســـــائلوه كلمـــــوه ... حركـــــوه لقنـــــوه
فـــإذا اســـتيأس منـــه ... القـــوم قـــالوا أحرفـــوه
حرفـــوه وجهـــوه ... مـــددوه غمضـــوه
عجلـــوه لرحيـــل ... عجلـــوا لا تحبســـوه
ارفعـــوه غســـلوه ... كفنـــوه حنطـــوه
فـــإذا مـــا لـــف فـــي الأكـــ ... فـــان قـــالوا : فـــاحملوه
أخرجـــوه فـــوق أعـــوا ... د المنايـــا شـــيعوه
فـــإذا صـــلوا عليـــه ... قيـــل هـــاتوه واقبـــروه
فـــإذا اســـتودعو ... ه الأرض رهنـــا تركـــوه
خلفـــوه تحـــت رمـــس ... أو قـــروه أثقلـــوه
أبعـــدوه أســـحقوه ... أو حـــدوه أفـــردوه

ولعل مرمى الشاعر من تعاقب الأفعال وتتابعها دون فاصل زمني التأكيد على سرعة انقضاء عمر الإنسان ، وسرعة تسلي الإنسان عن الميت ، وسرعة نسيان ودّه من خلال التعجيل بتغسيله وتكفينه ودفنه تلك هي حقيقة الإنسان .

ويتخذ من التجريد وسيلة لأخذ العبرة والعظة من الماضي والشباب الذي انصرم سريعاً كأن لم يكن شيئا ، ولذا فحرى بالإنسان أن يهرع إلى الآخرة ويعمل لها . يقول [١] :

كبرنـــا أيهـــا الأتـــراب حتـــى ... كأنـــا لـــم نكـــن حينـــا شـــبابا
وكنـــا كالغصـــون إذ تثنـــت ... مـــن الريحـــان مونعـــة رطابـــا
إلى كم طـــول صـــبوتنا بـــدار ... رأيت لهـــا اغتصـــابا واســـتلابا

---

(١) السابق ص ٣٣ .

إلا مـــا للكهـــول وللتصـــابي إذا ما اغتـــر مكتهـــل تصـــابى

ويجرِّد من نفسه شخصاً آخر يخاطبه ، مظهراً خلال هذا التجريد موقفه مـــن الغنى والفقر ، ونظرة الناس إلى الغنيِّ والفقير . ومدى تسليمه لأمر الله وصبره على قضائه فيقول [١] :

أغرك أني صرت فـــي زي مســـكين وصرت إذا استغنيت عنـــي تنحينـــي
تباعـــدت إذ باعـــدتني واطرحتنـــي وكنت قريب الدار إذ كنـــت تبغينـــي
فإن كنت لا تصفو صبرت على القذى وغمضت عيني من قذاك إلى حـــين
وحسنت أو قبحت كيمـــا تلـــين لـــي فحسنت تقبيحي وقبحـــت تحســـيني
رضيت بإقلالي فعش أنـــت موســـرا فإن قليلـــي عـــن كثيـــرك يغنيـــي
وما العز إلا عز من عزل بالتقي وما الفضل إلا فضل ذي الفضل والـــدين
وفي الله ما أغنى وفي الله مـــا كفـــى وفي الصبر عما فاتني مـــا يســـليني
وعندي مـــن التســـليم لله والرضـــى إذا عرض المكروه لي مـــا يعزينـــي
وحســـبي فـــإني لا أريـــد لصـــاحبي قبيحا ولا أعني بمـــا لـــيس يعنينـــي
وإنـــي أرى أن لا أنـــافس ظالمـــا وأرضى بكل الحق من ليس يرضيني

وكثيراً ما يتفكر في حال الدنيا وينظر بعين يملؤها التشاؤم والســـخط فيقـــول مستعيناً بالتجريد [٢] :

عـــج بالمعـــالم والربـــوع واســـأل بهـــن عـــن الرجـــوع
إن لـــم تجبـــك ديـــارهم يـــا صـــاح بـــالأمر الفظيـــع
فلســـان حـــالهم يقـــو ل أتنظـــرن إلـــى الجمـــوع
قـــد أصـــبحت مهجـــورة مـــن بعـــد منظرهـــا البـــديع
هيهـــات أن ينجـــو غـــدا يوم الحســـاب ســـوى المطيـــع

---

(١) السابق ص ٤٤٦ .

(٢) السابق ص ٦٩ .

والتفكير في حال الدنيا يدل على انشغاله بأمرها ، وأنه يسيطر عليه شعور بالوحشة والخوف ، خوف من النقلة وخوف من العاقبة .

ثالثاً المعاني :

ومعاني أبي العتاهية واضحة كل الوضوح لا غموض فيها ولا التواء ، ولا إبهام ولا إيهام ، مستمدة من واقع الحياة ، لا تكلف فيها ولا تصنع ، ولعل سطحية ثقافته كانت وراء وضوح معانيه وقرب مأخذها .

يقول د. نجيب البهبيتي عن معانيه [١] : " لقد كان أبو العتاهية موفقاً في استخدام هذه المعاني غاية التوفيق ، وكان حسن العرض لها تساعده في ذلك قوة طبع نادرة ، فكانت العامة به معجبة ، وكانت الخاصة به معجبة إلا في القليل ، وهذا القليل من الناس لا يأخذ عليه التقصير في لفظه ، لأنه نزل به عن المستوى الجمالي الذي كان قد تقرر في النفوس لألفاظ الشعر ، ولكن أبا العتاهية كان يخالفهم في ذلك ، ولا يرى رأيهم كما رأينا " .

وأهم ما يميز معانيه إسلاميتها ، فجلّ معانيه في الجانب الزهدي – خاصة – إسلامية المصدر ، بمعنى أن الشاعر تأثّر فيها بمعاني القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، وأقوال السلف الصالح .

وهذه السمة لمعانيه تعضد القول بأن الشاعر إنما استقى شعره الزهدي من معين إسلامي خالص ، لم يتأثر فيه بعقيدة مانوية أو غيرها من العقائد المارقة ، ولا نستغرب إذا وجدنا شاعرنا يتأثر تأثراً مباشراً بالقرآن الكريم والحديث الشريف ، فقد آل على نفسه حين سجنه الرشيد أن يظل عاماً لا يتكلم إلا بالقرآن وقول " لا اله إلا الله محمد رسول الله " ، فتشبعت نفسه بمعاني القرآن الكريم والحديث الشريف ، وأقوال السلف الصالح .

---

(١) تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري – دار الثقافة المغربية سنة ١٩٨١ ص ٣٣١ .

ويقول د. محمد حسين عبد الحليم عن كثرة اقتباساته من القرآن الكريم والحديث الشريف " و المتأمل في أشعار الزهد يلاحظ أن معانيها أكثرها مقتبس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، وأكثر شعراء الزهد اقتباسا أبو العتاهية ، حتى إنه ليتعذر علينا حصر اقتباساته لكثرتها في ديوانه " (١) .

ونتحين الفرصة هنا لنؤكد من خلال هذا التأثير المباشر بل والتشبع الواضح بمعاني القرآن والحديث صدق زهد الشاعر ، وأنه تزهَّد عن اعتقاد جازم وإيمان حقيقي بهذا المسلك الديني ، عكس ما أشيع حول زهده ، و إلا فبما يبرر ميله إلى الوحدة وعكوفه على القرآن و العبادة ، وإذا تذكرنا ثانية معنى الزهد الذي هو الانصراف عن الملذات والانشغال بأمر الآخرة والحساب والوقوف بين يدي العزيز الجبار ، فهل كان أبو العتاهية إلا غير ذلك ؟

ومن شعره المتأثر فيه بالقرآن الكريم قوله (٢) :

أليس الله في كل قريبا؟ بلى من حيث ما نودي أجابا

فالبيت مأخوذ من قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **و إذا سألك عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون** ﴾ . سورة البقرة : آية ١٨٦ .

وقوله (٣) :

وحدث عن الموت الذي لن تفوته ولا بد عما أنت منه تحيد

وقوله (٤) :

أرى الموت دينا له علة فتلك التي كنت منها تحيد

---

(١) بين التدين والمجون في شعر العصر العباسي الأول ، دار الوفاء بالمنصورة ص ٣٥٤ .

(٢) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٣٣ .

(٣) السابق ص ١٤٣ .

(٤) السابق ص ١٢٤ .

متأثراً فيه بقوله عز وجل : ﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد** ﴾ . سورة ق : آية ١٩ .

وقوله [١] :

ألم تر أن الحرث والنسل كله يبيد فمنه قائم وحصيد

متأثر فيه بقول الله تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد** ﴾ سورة هود : آية ١٠٠ .

وقوله [٢] :

خلق الله الخلق للفناء فهم بين شقي منهم وبين سعيد

متأثر فيه بقول الله تعالى : ﴿ **يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد** ﴾ . سورة هود : آية ١٠٥ .

وقوله [٣] :

عجبا لم ينسى المقابر والبلى سبحان من يحي العظام البالية

مأخوذ من قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **قال من يحي العظام وهي رميم * قل يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم** ﴾ . سورة يس : آية ٧٨ ، ٧٩ . **ومن التأثر بالقرآن قوله** [٤] :

يا عجبا كلنا يحيد عن الـ ـحين وكل لحينه لاقي

كأن حيًّا قد قام نادبه والتفت الساق بالساق

واستل منه حياته ملك الـ ـموت خفيا وقيل من راق

فهذه الأبيات متضمنة قوله تعالى : ﴿ **وقيل من راق * وظن أنه الفراق * والتفت الساق بالساق** ﴾ سورة القيامة : آية ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .

---

(١) السابق ص ١٤٣ .

(٢) السابق ص ١٤٦ .

(٣) السابق ص ٤٦٨ .

(٤) البيان والتبيين – ج ٣ ص ٨٥ – دار الجيل بيروت ١٩٩٠ م .

وقوله [١] :

فلئن عقلت لتشكرن وإن تشكر فقد أغنى وقد أقنى

متأثراً فيه بقوله تعالى : ﴿ **وأنه هو أغنى وأقنى** ﴾ سورة النجم آية ٤٨ .

ومن التأثر بالحديث الشريف قوله [٢] :

ولا تعدل الدنيا جناح بعوضة لدى الله أو مقدار نغبة طائر

مأخوذ من قول النبي ﷺ [٣] : " لو كانت الدنيا تعدل عن الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء " .

وقوله [٤] :

إياك والظلم إنه ظلم إياك والظن إنه كذب

مأخوذ من قول الرسول ﷺ [٥] : " اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة " . وقوله ﷺ في حديث آخر [٦] " إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث " .

وقوله [٧] :

لا تحقرن من المعروف أصغره أحسن فعاقبة الإحسان حسناه

---

(١) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٢٤ .

(٢) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ.كرم البستاني ص ١٧٦ .

(٣) الحديث رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح – انظر رياض الصالحين الإمام النووي – تعليق مصطفى عمارة – دار إحياء الكتب العربية بمصر ص ٣٣٨ .

(٤) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ. كرم البستاني ص ٣٧ .

(٥) جزء من حديث أورده مسلم في صحيحه – مطبعة محمد على صبيح بمصر ج ١٦ ص ١٣٤ .

(٦) جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ج ١٥ ص ٦٢ .

(٧) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ. كرم البستاني ص ٤٧١ .

متأثر فيه بقول الرسول ﷺ [١] : " لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلق أخاك بوجه طليق " . وقوله [٢] :

إذ المرء لم يعتق من المال رقة ... تملكه المال الذي هو مالكه
ألا إنما مالي الذي أنا منفق ... وليس لي المال الذي أنا تاركه

وقوله [٣] :

جمعت من الدنيا وحزت ومنيتا ... ومالك إلا ما وهبت وأمضيتا
ومالك مما يأكل الناس غير ما ... أكلت من المال الحلال وأفنيتا
ومالك إلا كل شيء جعلته ... أمامك لا شيء لغيرك أبقيتا

متأثر بقول الرسول ﷺ [٤] : " يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت " .

وقوله [٥] :

والله للناس بأعمالهم ... وكل ناوٍ فله ما نوى

مأخوذ من قول الرسول ﷺ [٦] : " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرء ما

---

(١) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار الحديث - القاهرة - الأولى ١٩٩١ م ج ٤ ص ٢٠٢٦ .

(٢) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ. كرم البستاني - ص ٣١٧ .

(٣) الديوان ص ٨٤ .

(٤) جزء من حديث رواه الإمام احمد ومسلم والترمذي، انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ط المكتبة العصرية - بيروت ط الثانية ١٩٩٦ م ج ٤ ص ٤٩٦ .

(٥) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ. كرم البستاني ص ٢٥ .

(٦) جزء من حديث رواه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، انظر مختصر صحيح البخاري للإمام الزبيدي - الخامسة ١٩٩٢ م - دار النفائس بيروت - كتاب بدء الوحي ج ١ ص ٢١ .

نوى " . وقوله [١] :

يا راعي النفس لا تغفل رعايتها فأنت عن كل ما استرعيت مسئول

مأخوذ من قول الرسول ﷺ : " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته " [٢] .

ومن تأثره بقول السلف الصالح :

تأثره بقول الحسن البصري : " يا ابن آدم أنت أسير في الدنيا ، رضيت من لذتها بما ينقضي ، ومن نعيمها بما يمضي ، ومن مُلكها بما ينفذ ، فلا تجمع الأوزار لنفسك ، ولأهلك الأموال ، فإذا مت حملت الأوزار لنفسك ولأهلك الأموال " .

فقد قال أبو العتاهية في ذلك [٣] :

أبقيت مالك ميراثا لوارثه فليت شعري ما أبقى لك المال

القوم بعدك في حال تسرهم فكيف بعدهم دارت بك الحال

ملو البكاء فما يبكيك من أحد واستحكم القيل في الميراث والقال

كذلك قوله [٤] :

تزيده الأيام إن أقبلت شدة خوف لتصاريفها

كأنها في حال إسعافها تسمعه وقعة تخويفها

أخذ هذا المعنى من قول الحسن البصري ، وقد سئل كيف ترى الدنيا ، فقال : شغلني توقع بلائها عن الفرح برخائها .

ومن تأثره بأقوال الفلاسفة قوله في صديقه على بن ثابت يرثيه على قبره [٥] :

---

(١) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٣٢٣ .

(٢) جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما – انظر مختصر صحيح البخاري للإمام الزبيدي كتاب الجمعة ج ١ ص ١٢٢ .

(٣) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ. كرم البستاني ص ٣٥٠ .

(٤) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ.كرم البستاني ص ٢٨٢ .

(٥) الأغاني شرح أ. سمير جابر دار الكتب العلمية بيروت ج ٤ ص ٤٨ .

ألا من لـــي بأنســـك يـــا أخيـــا ... ومن لـــي أن أبثـــك مـــا لـــديا
طوتك خطوب دهرك بعد نشـــر ... كـــذاك خطوبـــه نشـــراً وطيـــاً
فلو نشرت قـــواك لـــي المنايـــا ... شكوت إليك مـــا صـــنعت إليـــا
بكيتك يا علـــي بـــدمع عينـــي ... فما أغنى البكـــاء عليـــك شـــيا
كفى حزنـــا بـــدفنك ثـــم إنـــي ... نفضت تراب قبـــرك مـــن يـــديا
وكانت في حياتك لـــي عظـــات ... فأنت اليوم أوعـــظ منـــك حيـــا

قيل إنه أخذ هذه المعاني من كلام الفلاسفة لما أحضروا تابوت الإسكندر، وقد أخرجوه ليدفن ، فقال بعضهم كان الملك أمس أهيب منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس،وقال آخر:سكنت حركة الملك في لذاته وقد حركنا اليوم فـــي ســـكونه جزعا لفقده،وهذان المعنيان هما اللذان ذكرهما أبو العتاهية في هذه الأشعار [١] .

وقوله [٢] :

أحســـــــن الله بنـــــــا ... أن الخطايـــــــا لا تفـــــوح
فـــــإذا المســـــتور منـــــا ... بـــــين ثوبيـــــه فضـــــوح

قد أخذه من قول أحد الحكماء:"لو كان للخطايا ريح لافتضح الناس ولم يتجالسوا.

وقد تأثر أبو العتاهية ببعض الشعراء القدامى ، ولكن تأثره بهم كان قلـــيلاً ، نظراً لعدم تعمقه في قراءة دواوينهم .

ومن تأثره بالشعر القديم قوله [٣] :

ترغب النفس إذا رغبتها ... و إذا زجيت بالشيء زجا

متأثر فيه بقول أبي ذؤيب الهذلي [٤] :

---

(١) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ.كرم البستاني ص٤٩٢،٤٩١.والأغاني ج٤ص٤٤.ط دار الكتب .
(٢) الديوان ص ١١٦ .
(٣) الديوان قافية الجيم .
(٤) تاريخ الأدب العربي – عمر فروخ – الأدب القديم ط دار العلـــم – بيـــروت ١٩٩٧ م – ترجمة أبي ذؤيب الهذلي ج ١ .

والنفس راغبة إذا رغبتها وإن ترد إلى قليل تقنع

وقوله [١] :

ألا كل شيء ما سوى الله زائل ألا كل ذي نسل يموت ونسله

متأثر فيه بقول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

ومن المقرر حقاً أن من تأثروا بأبي العتاهية أكثر ممن تأثر بهم أبو العتاهية . فممن تأثر بأبي العتاهية ابن المعتز في قوله [٢] :

رب يوم بكيت فيه فلما صرت في غيره بكيت عليه

متأثر فيه بقول أبي العتاهية [٣] :

كم زمان بكيت منه قديما ثم لما مضى بكيت عليه

وكذلك قول أبي تمام [٤] :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

أخذه من قول أبي العتاهية [٥] :

كم نعمة لا يستقل بشكرها الله في طي المكاره كافيه

ومن معاني أبي العتاهية الطريفة قوله في النفس ووجوب كبح جماحها [٦] :

والنفس طير ينتفضن إلى الهوى بأجنحة تهوى إليه فسكنها

---

(١) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٣٧٣ .

(٢) ديوان ابن المعتز ط بيروت قافية الياء .

(٣) الأنوار الزاهية – قافية الياء .

(٤) انظر الصناعتين – تحقيق محمد البجاوي ط الحلبي ص ٢٣٣ .

(٥) الأنوار الزاهية – قافية الياء .

(٦) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٤٤٧ .

رابعاً الصور والأخيلة :

الصورة الأدبية هي التركيب القائم على الإصابة في التنسيق الفني الحي لوسائل التعبير التي ينتقيها وجود الشاعر – أعني خواطره ومشاعره وعواطفه – المطلق من عالم المحسات ليكشف عن حقيقة المشهد أو المعنى في إطار قوي تام محس ، مؤثر على نحو يوقظ الخواطر و المشاعر في الآخرين [١] .

واستعان أبو العتاهية بالصورة بنوعيها الحقيقية والخيالية ، ولا نبالغ إذا قلنا إن الشاعر رغم ثقافته الشعبية وأسلوبه السهل الذي يبعد عن الغموض ، استطاع أن يمدنا بصور طريفة أخاذة سواء كانت خيالية أو حقيقة .

ولنقرأ قوله [٢] :

زرت القبور قبور أهل الملك في الـ ... دنيا وأهل الرتع في الشهوات
كانوا ملوك مآكل ومشارب ... وملابس وروائح عطرات
فإذا بأجساد عرين من الكسا ... وبأوجه في التراب منعفرات
لم تبق منها الأرض غير جماجم ... بيض تلوح وأعظم نخرات

فهذه الصورة أخاذة رغم كونها حقيقية .

واستعان أبو العتاهية بالخيال بنوعيه ، الجزئي الذي يجنح فيه إلى الاستعانة بطريق أو أكثر من طرق البيان لتوضيح صورة ما يريد بيانها ، والكلي الذي يرمي من خلاله الشاعر تصوير معنى ما أو موقف ما ، ويجمع من أجله جزئيات الصورة وما يردفها من لفظ فصيح ، وخيال خلاب وموسيقى وصور جزئية وعاطفة .

ومن الخيال الجزئي عنده نجد التشبيه في قوله [٣] :

---

(١) البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر د/ علي صبح المكتبة الأزهرية للتراث سنة ١٩٩٦ م ص ١١ .

(٢) ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ. كرم البستاني ص ٧٧ .

(٣) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ. كرم البستاني ص ٣٢ .

عريت من الشباب وكنت غضا كما يعرى من الورق القضيب

فقد شبه انحسار الشباب عنه بعري القضيب من الورق وتساقطه عنه ، والبيت يحتوي على استعارة تبعية أيضاً إذ شبه الشباب بالإنسان الذي من شأنه التستر بالملابس وغيرها .

وقوله [١] :

كأن محاسن الدنيا سراب وأي يد تناولت السرابا

وقوله [٢] :

أرى قوماً يتيهون بهاما رزقوا جاها

وقوله في أهل الدنيا وسرعة ترحلهم عنها [٣] :

فكأنهم ظعن بها نزلوا لما استراحوا ساعة ظعنوا

ونراه يضرب في التشبيه ، مثل قوله في تشبيه عمر الإنسان ومدة بقائه في الدنيا [٤] :

أراك وإن طلبت بكل وجه كحلم النوم أو ظل السحاب

أو الأمس الذي ولى ذهابا وليس يعود أو لمع السراب

ومن أمثلة الاستعارة قوله [٥] :

حتى متى أنت في لهوٍ وفي لعبٍ والموت نحوك يهوى فاغراً فاه

وقوله [٦] :

وقد كان للدنيا قرون كثيرة ولكنَّ ريب الدهر أفنى قرونها

---

(١) السابق ص ٣٢ .

(٢) السابق ص ٤٥٩ .

(٣) السابق ص ٣٣٧ .

(٤) السابق ص ٤٧ .

(٥) السابق ص ٤٧٠ .

(٦) السابق ص ٤٧٠ .

فقد جعل للدنيا قروناً على سبيل الاستعارة المكنية ومن ذلك قوله [١] :

أذلَّ الحرص والطمع الرقابا وقد يعفو الكريم إذا استرابا

فقد نزل الحرص والطمع منزلة الإنسان الذي مـن شـأنه الإذلال وغيـره .

وقوله [٢] :

تنزه عن الدنيا وإلا فإنها ستأتيك يوماً في خطاطيفها الحجن

وقوله [٣] :

لتجذبني يد الدنيا بقوتها إلى المنايا وإن نازعتها رسني

وقوله [٤] :

لكم فجع الدهر من والد وكم أثقل الدهر من والده

فقد جعل الدهر إنسانا له إرادة يثكل ويفجع على الفقد .

وقوله [٥] :

فيا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب

فقد نزل الشباب منزلة العاقل الذي يتأتى منه الذهاب والإياب . ومن كناياتـه قوله [٦] :

وإنَّ بطون المكثرات كأنما تنقنق في أجوافهن الضفادع

كناية عن الامتلاء وفرط الشبع .

---

(١) السابق ص ٣٢ .

(٢) الديوان ص ٤٣٩ .

(٣) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ. كرم البستاني ص ٤٤٥ .

(٤) السابق ص ١٥١ .

(٥) السابق ص ٤٦ .

(٦) السابق ص ٢٥٤ .

وقوله [١] :

كل حي عند ميتته حظه من ماله الكفن

كناية عن حقارة ما يناله من عرض الدنيا .

وقوله [٢] :

إذا فكرت في ندمي عليها عضضت أناملي وقرعت سني

كناية عن شدة الندم .

---

(١) السابق ص ٤١٢ .

(٢)السابق ص ٤٥٢ .

خامساً البديع في شعره :

احتوى شعره الزهدي على صور جيدة من البديع ، ونلاحظ أن البديع عنده جاء سمحا طيعاً لا تكلف فيه .

ويتحدث د . نجيب البهبيتي عن البديع عنده في معرض تناوله لأصحاب مدرسة التسهيل ونصيبهم من البديع فيقول [١] :

وأصحاب هذه المدرسة لا يعدون بين أصحاب البديع على أن شعرهم وإن سلم من التكلف ، وتجنب الإفراط في طلب الصورة ، والغلو في تحقيق الجمال اللفظي ، هذا الشعر لم يأت مغسولاً من هذه الفنون غسلاً ، ففيه من هذا كله القدر الذي لا يأتيه صاحبه كرها ، ولا يحمل نفسه عليه حملا ، وإنما هو ينتظره حتى يدفعه إليه المعنى دفعاً ، وإنك قد تقرأ لأحدهم القصيدة التامة أو المقطوعة الطويلة فتمر فيها مراً ، وتقطع فيها الشوط حتى تقع على الصورة ، واقرأ لأبي العتاهية هذه المقطوعة مثلاً :

لا تكذبن فلو قد احتفر الحشا ... بطل احتيالك عنده ورقاكا
حاولت رزقك دون دينك ملحفا ... والرزق لو لم تبغه لبغاكا
وجعلت عرضك للمطامع بذلة ... وكفى بذلك فتنة وهلاكا
وأراك تلتمس الغنى لتناله ... و إذا قنعت فقد بلغت مناكا

يسير فيها هذه المسيرة ، ويمر فيها بالأبيات الكثيرة يواجه المعاني مواجهة ، ويعالجها مباشرة حتى يصل إلى قوله :

وبخت غيرك بالعمى فأفدته ... بصراً وأنت محسن لعماكا
كفتيلة المصباح تحرق نفسها ... وتنير واقدها وأنت كذاكا

فيخيل لك أن المثل كان معه على ميعاد ، وأنهما يتجاذبان تجاذباً لا مفر معه

---

(١) تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري – دار الثقافة المغربية ١٩٨١ م ص ٤٠٨ .

من الالتقاء ، وأن المعنى هو الذي هدى إلى الصورة طبعاً من غير بحث ، وأن المناسبة هي التي عرضت بالتشبيه وانتهت بصاحبه إليه " .

ومن صور البديع عنده نجد الطباق في قوله [١] :

ذو الود من أهل القبور عليكم ... سلام ألا من دعوة تسمعونها

سكنتم ظهر الأرض حيناً بنضرة ... فما لبثت حتى سكنتم بطونها

وفي قوله [٢] :

عليكم سلام الله إني مودع ... وعيناي من مض التفرق تدمع

فإن نحن عشنا يجمع الله بيننا ... وإن نحن متنا فالقيامة تجمع

وقوله [٣] :

أنساك محياك المماتا ... فطلبت في الدنيا الثباتا

وقوله [٤] :

لدوا للموت وابنوا للخراب ... فكلكم يصير إلى تباب

وقوله [٥] :

أواخر من ترى تفنى ... كما فنيت أوائله

وقوله [٦] :

وليس يذل بالإنصاف حي ... وليس يعز بالغشم الغشوم

---

(١) الديوان ص ٤٥١ .

(٢) الديوان ص ٢٤٧ .

(٣) ديوان أبي العتاهية تحقيق أ. كرم البستاني – ص ٩٣ .

(٤) السابق ص ٤٦ .

(٥) السابق ص ٣٦٥ .

(٦) السابق ص ٣٩٩ .

وقوله [١] :

ذهب الشباب بلهوه وأتى المشيب مؤدبا

ومن صور الجناس قوله مخاطباً صديق مات [٢] :

قد كنت أفرق من فراقك سالما فأجل منه فراق دائرة الردى

وقوله متعجباً من فعل القضاء وتصريف الله في خلقه بالموت [٣] :

ما للطبيب يموت بالـداء الـذي قد كان يبرء منه فيما قد مضـى

ذهب المداوي والمداوي والـذي جلب الدواء وباعه ومن اشـترى

ومن التصريع قوله في تذكره آخرته ورقدته في قبره [٤] :

يا بيت بيت النوى عن كل ذي ثقة يا بيت بيت الردى يا بيت وحشـتيه

يا نأي منتجعي يا هـول مطلعـي يا ضيق مضجعي يـا بعـد شـقيته

وقوله [٥] :

الدهر ذو دول والموت ذو علل والمرء ذو أمل والنـاس أشـباه

ولم تزل عبـر فـيهن معتبـر يجري بهـا قـدر والله أجـراه

وقوله في تصوير حال الموتى بعد أن نعموا أيام الدنيا [٦] :

لله در جمـــــــــاجم تحـــت الجنـــادل ثاويـــة

ولقـــد عتـــوا زمنـــاً كـــأ نهـــم الســـباع العاديـــة

فـــي نعمـــة وغضـــارة وســـلامة ورفاهيـــة

قـــد أصـــبحوا فـــي بـــرزخ ومحلـــة متراخيـــة

---

(١) السابق ص ٥٨ .

(٢) السابق ص ٢٨ .

(٣) السابق ص ٢٩ .

(٤) السابق ص ٤٨٤ .

(٥) السابق ص ٤٧٠ .

(٦) السابق ص ٤٨٥ .

وقوله [١] :

الخرق شؤم والتقى جنة والرفق يمن والقنوع الغني

وقوله سائلاً عمن مضوا من القرون الأولى [٢] :

أين الحماة الصابرون حمية يوم الهياج لحر مختلف القنا

وذوو المنابر والعساكر والدساكر والحضائر والمدائن والقرى

وذوو المواكب والكتائب والنجا ئب والمراتب والمناصب في العلى

ومن صحة التقسيم قوله [٣] :

هما أمران يوضح عنهما لي كتابي حين أنظر في كتابي

فإما أن أَخلَّد في نعيم وإما أن أُخلَّد في عذابي

وقوله [٤] :

والدهر يوم أنت فيه وآخر ترجوه أو يوم مضى بك فاتا

ومن التوضيح بعد الإبهام قوله [٥] :

تمسك بالتقى حتى تموتا ولا تدع الكلام ولا السكوتا

فقل حسناً وأمسك عن قبيح ولا تنفك عن سوء صموتا

---

(١) السابق ص ٢٥ .

(٢) السابق ص ٢٧ .

(٣) السابق ص ٤٧ .

(٤) السابق ص ٨٣ .

(٥) السابق ص ٨٥ .

سادساً الموسيقى :

للموسيقى بنوعيها الداخلية والخارجية دور حيوي وفعَّال في ثراء الصورة وغنائها ، لما تحدثه من تناغم صوتي وتوازن بين ألفاظ البيت وفقراته .

وتتمثل الصورة الخارجية في موسيقى الوزن والقافية ، والتي تعتمد على وحدات صوتية تتألف كل واحدة من حركة وسكون أو أكثر من حركة وسكون ، وهذه الوحدات تتكرر في كل وزن عروضي [١] .

وأبو العتاهية – كما سبق القول – شاعر مطبوع غزير النتاج ، سريع الخاطر ، ولعل سرعة خاطره قد اضطرته أحيانا إلى مجافاة الوزن الخليلي والنسج على أوزان أخرى قد اخترعها أو أتته عفوا .

وقد أشار ابن قتيبة إلى هذا المسلك الشعري فقال عند حديثه عن أبي العتاهية [٢] وكان لسرعته وسهولة الشعر عليه ربما قال شعراً موزوناً يخرج به عن أعاريض الشعر وأوزان العرب . وقعد يوماً عند قصَّار [٣] فسمع صوت المدقة ، فحكي ذلك في ألفاظ شعره وهي عدة أبيات فيها قوله :

للمنون دائرا ... ت يدرن صرفها

هن ينتقينها ... واحدة فواحدا

لقد التقط بأذنه الموسيقية الحساسة صوت مدقة القصار ثم حكاه في هذه الأبيات التي نستطيع أن نضع لها وزنا يتألف من " فاعلن مفاعلن " وهو وزن لم يعرفه العرب ، ولم يسجله الخليل في عروضه وكان أبو العتاهية إذا سئل عن ذلك قال أنا أكبر من العروض .

---

(١) انظر البناء الفني للصورة الأدبية للشعر ، د . على صبح المكتبة الأزهرية للتراث ص ٢٤٣ .

(٢) الشعر والشعراء – دار إحياء العلوم – بيروت ص ٥٣٨ .

(٣) القصار : المبيض الثياب .

ويقول ابن قتيبة معلقاً على قول أبي العتاهية السابق : ولعله يريد بقوله " أنا أكبر من العروض " أي أنه أسن منه . ويقول : إنَّ خروجه عن الأعاريض التقليدية كان سبب سهولة الشعر عليه .

وذكر أبو العلاء أن بحراً لم يرد عند العرب القدامى وأن أبا العتاهية هو أول من استعمله في قصيدته التي يقول فيها [١] :

أيا عتب ما يضر ك أن تطلقي صفادي

ويخبرنا المسعودي أنه استعمل بحراً آخر يسمى دق الناقوس ولم يرد في أوزان الخليل وهذا البحر على وزن قوله [٢] :

هم القاضي بيت بطرب قال القاضي لما عوتب
ما في الدنيا إلا مذنب هذا عذر القاضي واقلب

ولم يخرج أبو العتاهية على أوزان الخليل فحسب بل خرج على قيد الوحدة التي رآها القدامى في البيت أيضاً وقد سمى المرزباني هذا الخروج " التضمين " .

ومعنى التضمين أن ليست للبيت وحدة في ذاته بل تربطه بلاحقه صلة ما .

وقد مثل له صاحب الموشح [٣] بمقطوعة تتصل أبياتها على النحو الذي تراه في بيتيها الأولين وهما قوله :

يا ذا الذي في الحب يلحي أما والله لو كلفت منه كما
كلفت من حب رخيم لما لمت على الحب فذرني وما

ويقول ابن المعتز عن خروجه على الأعاريض المعروفة : " حدثني المبرد قال : حدثني محمد البصري . قال : كان أبو العتاهية لسهولة شعره وجودة طبعة

---

(١) الفصول والغايات ج ١ ص ١٣١ . نشر محمود حسن زناتي – مطبعة حجازي – القاهرة ١٩٣٨ م .

(٢) مروج الذهب ج ٧ ص ٨٧ .

(٣) الموشح ص ٤٠٥ .

فيه ربما قال شعراً موزوناً ليس من الأعاريض المعروفة ، وكان يلعب بالشعر لعباً ويأخذ كيف شاء [١] .

ويشير الأصفهاني إلى خروجه على الأوزان المعروفة فيقول : " وله أوزان طريفة قالها مما لم يتقدمه فيه الأوائل " [٢] .

ولم يخرج أبو العتاهية على الأوزان التقليدية المعروفة فحسب ، بل وجدنا له شعراً مزودجاً جميلا ، والشعر المزدوج هو الذي لا يراعي فيه وحدة القافية إلا في عروض البيت وضربه ، وهو لون يلجأ إليه الشاعر إذا اضطره الأمر إلى ذلك كطول مقام القصيدة كما هو الشأن في أرجوزته ذات الأمثال . فهي طويلة جداً يقال إن عدد أبياتها يبلغ أربعة آلاف بيت .

وكثير من قوافيه نجده متمكن في مكانه يقتضيه المقام ويتطلبه المعنى ، انظر إلى قوله في عتبة جارية رائطة بنت أبي العباس السفاح وزوجة الخليفة المهدي :

أعلمت عتبة أنني ... منها على شرف مطل
وشكوت ما ألقى إليـ ... ـها والمدافع تستهل
حتى إذا برمت بنا ... أشكوا كما يشكو الأذل
قالت فأي الناس يعـ ... ـلم ما تقول فقلت كل

يقول ابن المعتز معلقاً على البيت الأخير :

أجمع أهل الأدب أنهم لم يسمعوا قافية أحق بمكانها من قوله " فقلت كل " وهي قصيدة مشهورة يعني بها [٣] .

* * *

(١) طبقات الشعراء ابن المعتز ، تحقيق عبد الستار فراج الرابعة دار المعارف ص ٢٢٩ .
(٢) الأغاني ج ٤ ص ١٢٣ .
(٣) طبقات الشعراء ابن المعتز – تحقيق عبد الستار فراج – دار المعارف ص ٢٢٨ .

الخاتمة

إن كان لي من رأي في زهد الشاعر بعد السرد والتفصيل أقول في اطمئنان بصدق عقيدته ، وصدق زهده لأمور ذكرت في ثنايا البحث ولأشعار تفيض بالعاطفة الصادقة والإيمان الخالص بالله عز وجل .

فقد حان الآن أن ننصف الرجل بعد ظلم ثلاثة عشر قرناً من الزمان . إنه لشاعر مبتلى فعلاً حين اتهم في عقيدته ، مبتلى حين اتهم في صدق زهده ، مبتلى حين تناول اليسوعيون شعره بالتحريف والحذف والزيادة والنقصان .

ولا غرو فقد قال الله تعالى في قرآنه الكريم : ﴿ **الم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا ءامنا وهم لا يفتنون** * ﴾ (١) .

وإني لأرجو أن أكون قد درست شعره دراسة تخلو من الأهواء والنوازع وحققت فيما يخصه من أخبار بنظر الناقد المنصف .

وإني لأوصي أن يعاد طبع ديوان الشاعر من جديد طبعاً يعنى فيه بالتحقيق الدقيق والمقارنة بين أصل مخطوطات الديوان وبين ديوانه نشر الأستاذ كرم البستاني والأنوار الزاهية ، وتصويب ما حرفه اليسوعيون من شعره حتى يحظى القارئ بصورة صحيحة للديوان .

والله أسأل أن يجنبنا الزلل ويرزقنا علماً نافعاً ويجعل قولنا وعملنا خالصين لوجهه الكريم ، انه نعم المولى ونعم النصير .

مصر المحروسة ١٤٢٨ هـ .

---

(١) سورة العنكبوت : آية ١ ، ٢ .

ثبت المصادر والمراجع

أولاً المصادر :

١- الأغاني – أبو الفرج الاصفهاني – طبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٩ هـ – ١٩٥٠ م .

٢- الأغاني – أبو الفرج الاصفهاني – شرح أ / سمير جابر – دار الكتب العلمية – بيروت .

٣- الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية – عني بطبعه شيخو – المطبعة الكاثوليكية – بيروت – لبنان – الطبعة الرابعة .

٤- ديوان أبي العتاهية – تحقيق أ/ كرم البستاني – بيروت – لبنان .

ثانياً المراجع :

١- أبو عثمان الجاحظ . د. محمد عبد المنعم خفاجي – دار الطباعة المحمدية – القاهرة .

٢- أبو العتاهية – أ/ محمد أحمد برانق – القاهرة ١٩٤٧ م .

٣- أسطورة الزهد عند أبي العتاهية . د. عبد العزيز الكفراوي ، طبعة نهضة مصر – القاهرة .

٤- أسس النقد الأدبي عند العرب – أ/ أحمد بدوي – ط نهضة مصر الفجالة – القاهرة .

٥- أمراء الشعر في العصر العباسى – أ /أنيس المقدسي – ط بيروت – دار العلم للملايين .

٦- البيان والتبيين – أبو عثمان الجاحظ – تحقيق عبد السلام هارون – دار الجيل – بيروت ١٩٩٠ م .

٧- البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر – د. على صبح – المكتبة الأزهرية للتراث ١٩٩٦ م .

٨- بين التدين والمجون في شعر العصر العباسي الأول - د. محمد حسين عبد الحليم - دار الوفاء - المنصورة .

٩- تاريخ الأدب العربي - د. السباعي بيومي .

١٠-تاريخ الأدب العربي - الأعصر العباسية - أ. عمر فروخ - ط الأولى ١٩٦٨ - دار العلم للملايين - بيروت - لبنان .

١١-تاريخ الأدب العباسي - العصر العباسي الأول - د. شوقي ضيف .

١٢-تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري - د. نجيب البهبيتي - دار الثقافة المغربية ١٩٨١ م .

١٣-تاريخ ابن خلدون " المقدمة " دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الأولى سنة ١٩٩٢ .

١٤-تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان - ترجمة عبد الحليم النجار - طبعة دار المعارف - ط الثالثة .

١٥-تفسير القرآن العظيم لابن كثير الدمشقي - المكتبة العصرية - بيروت - ط الثانية ١٩٩٦ م .

١٦-الحوار في القصيدة العربية إلى نهاية العصر الأموي - د.سيد عمارة - مطبعة التركي - طنطا .

١٧-الحيوان - أبو عثمان الجاحظ - نشر عبد السلام هارون - القاهرة - عيسى البابي الحلبي ١٩٤٥ م .

١٨-ديوان ابن المعتز - ط بيروت ١٩٦١ م .

١٩-رياض الصالحين - يحي بن شرف النووي تعليق مصطفى عمارة - دار إحياء الكتب العربية - بمصر .

٢٠-زهر الآداب للحصري .

٢١-شبكة المنهج (موقع على الشبكة العالمية للمعلومات) الإنترنت) .

٢٢-الشعر والشعراء لابن قتيبة - دار إحياء العلوم - بيروت ط السادسة ١٩٩٧ م .
٢٣-صحيح مسلم مطبعة دار الحديث - القاهرة - الأولى ١٩٩١م .
٢٤-صحيح مسلم - مطبعة محمد علي صبيح بمصر مصورة عن طبعة استانبول .
٢٥-الصناعتين لأبي هلال العسكري - تحقيق محمد البجاوي - ط الحلبي .
٢٦-طبقات الشعراء لابن المعتز - نشر عبد الستار فراج - القاهرة - دار المعارف - ط الرابعة .
٢٧-العصر العباسي - د. شوقي ضيف - الطبعة العاشرة - دار المعارف .
٢٨-العمدة - ابن رشيق القيرواني - ط دار الجيل - بيروت - لبنان .
٢٩-في الشعر العباسي نحو منهج جديد - د. يوسف خليف - مكتبة غريب القاهرة .
٣٠-الفصول والغايات - أبي العلاء المعري - نشر محمود حسن زناتي - مطبعة حجازي - القاهرة ١٩٣٨ م .
٣١-القصيدة العباسية قضايا واتجاهات د. عبد الله التطاوي - دار غريب القاهرة .
٣٢-اللزوميات أبو العلاء المعري - ط بيروت ١٩٦٩ م .
٣٣-مروج الذهب - المسعودي - ط مصر - بولاق - ١٢٨٣ هـ .
٣٤-معجم الأدباء - ياقوت الحموي - دار الفكر ط ثالثة ١٩٨٠ م .
٣٥-المعجم الوسيط إخراج إبراهيم أنيس وآخرون ط الثانية .
٣٦-مختصر صحيح البخاري الإمام زين الدين احمد بن عبد اللطيف الزبيدي - دار النفائس - بيروت - لبنان - ط الخامسة ١٩٩٢ م .

٣٧-الموشح في مآخذ العلماء علـــى الشـــعراء للمزربـــاني - القـــاهرة - ١٩٢٦ م .
٣٨-نهاية الأرب في فنون العرب - شهاب الدين احمد بن عبـــد الوهـــاب النويري - دار الكتب .